الاشراف الفني زهير الحمو

غريغوري غورين

البيت الذي شيّده سويفت

فانتازيا مسرحيّة في فصلين

ترجمة وتقديم

ثائر ديب

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب:

Grigori Gorin
The House That Swift Built

A Theatrical Fantasy in Two Acts

البيت الذي شيده سويفت = The House That Swift Built/
غريغوري غوريت؛ ترجمة وتقديم ثائر ديب . - دمشق: وزارة الثقافة،
١٩٩٧ . - ١٩٢ص؛ ٢٠سم . - (مسرحيات عالمية؛ ٤٣).

١- ٨٢٢ ا ن غ و ر ب ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- غوريت ٥ - ديب ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٣٢٩ / ٩ / ١٩٩٧

مسرحيات عالمية
«٤٣»

إلى عماد صبّاغ . . .

وباقي أعضاء تلك «الفرقة» التي أدت

هذه المسرحية على خشبة مستحيلة .

ثائر

مقدمة الترجمة العربية

«ثمة مشاكل أبدية تهمّ الناس دائماً. ولفهم هذه المشاكل، ليس من الخطأ تذكّر ماحدث البارحة، ومنذ فترة غير بعيدة، وماحدث في الماضي السحيق».

/غريغوري غورين، «انسوا هيروسترات»/

في «البيت الذي شيّده سويفت»، يقاوم غريغوري غورين إغراء مَسْرَحَة حياة الهجّاء العظيم جونا ثان سويفت، على الرغم من أن حياة هذا الأخير حافلة بالكثير من الأحداث الدرامية. إلا أن غورين لايتركنا دون أن يقدم لنا بعض الإشارات والإلماعات إلى ماحدث في حياة سويفت، ودون أن يحيلنا إلى مراجع واقعية مثل عبارات نطقها سويفت أو أبيات شعرية مشهورة من قصيدته «موت الدكتور سويفت»، والتي أخذ منها غورين عنوان مسرحيته، ومثل مرض منيير السمعي العصبي الذي جعل من سويفت ذلك المريض العاجز البائس

في أواخر سِنيّ عمره. وليس هذان سوى مثالين وحسب، وبالتالي، فإن من الممكن في الحال تسكين أية مخاوف مضمرة لدى اختصاصيي الأدب الانكليزي أو دارسي سويفت الذين يرغبون برؤية مافي حياة سويفت من دراما وهي تُمثّل على خشبة المسرح. و يبقى مهماً تماماً، على أية حال، فهم حياة سويفت وعصره ومؤلفّاته، وعلى الأقل من بينها كتابه الأهمّ والأروع **رحلات جوليڤر**، وذلك من أجل استيعاء مسرحية غورين هذه والتمتّع بتعامله الفذّ مع حياة سويفت وشخصيات عصره ومؤلفّاته. ولهذا فقد رأينا من الضروري أن نقدّم تلخيصاً لحياة سويفت وأعماله وعرضاً وافياً لكتابه **رحلات جوليڤر** الذي يركّز عليه غورين في مسرحيته تركيزاً شديداً.

* * *

***) جوناثان سويفت: حياته وأعماله:**

يُعدُّ جوناثان سويفت (١٦٦٧-١٧٤٥) أعظم كاتب ساخر أنجبته إنكلترا في تاريخ أدبها الطويل. وهو لايزال إلى اليوم، وبعد مرور أكثر من قرنين على وفاته، موضع اهتمام الدارسين والباحثين والقرّاء على حدٍّ سواء. ولا يزال صدى كتاباته يتردد في بقاع الأرض الواسعة. فأينما وجدت الحروب والظلم والاستغلال والفساد والنفاق على المستوى السياسي العام،

والغرور والوضاعة والجمود والجشع والحماقة على المستوى الفردي، تظل كتاباته محتفظة بحيويتها وعصريتها، وطالما كان الانسان يعيش تحت وطأة القوى المدمرة التي تنذر بفناء الجنس البشري فسيجد القارئ في أدب سويفت تلك الأفكار والمشاعر التي تجيش في صدره، والتي تتلخص بالاشمئزاز والغضب من السلوك الأحمق اللاأخلاقي. فلا غرابة إذن أن كتابه **رحلات جوليڤر** (١٧٢٦)، وهو أشهر مؤلفاته، قد أصبح كتاباً عالمياً تُرجِمَ إلى جميع لغات العالم تقريباً، كما ترجم إلى ثمانٍ وعشرين لغة من لغات الاتحاد السوڤياتي السابق.

ولد سويفت لأبوين إنكليزيين في إيرلندا، وأمضى هناك الجزء الأكبر من حياته التي يمكن وصفها بأنها هروب مستمر من إيرلندا وعودة مستمرة إليها، وكأنَّ هذا الهارب محكوم بقدر لايتغير. تلقّى سويفت دراسته في كلية «ترنتي» في «دبلن»، ولكنه اكتسب معرفته الواسعة من مكتبه «موربارك» في «صاري» حيث عاش لبضع سنوات وهو يعمل سكرتيراً للسير «وليم تمبل»، السياسي المتقاعد ذي الاهتمامات الثقافية، وهكذا كان لدى سويفت هناك الوقت للمطالعة، وتجريب باعه في الكتابة. وكانت محاولته الأولى في «القصيدة البذارية» التي تميزت بواقعية حادة استكملها في أعماله التالية مثل «وصف وابل المطر»، «وصف الصباح»، «موت الدكتور

سويفت»، «غرفة ملابس السيدة»، «مختارات شعرية». ولقد كره سويفت عمله كشخص تابع غير مستقل، فهرب عائداً إلى إيرلندا لأول مرّة عام ١٦٩٤. وفي عام ١٦٩٥ أصبح من رجال الدين، وفي تسعينات ذلك القر ن، «اا... ابع عشر»، كان قد كتب مؤلَّفين هامين نشرهما عام ١٧٠٤، وهما:

١) **معركة الكتب**: Battle of the books وهو ملحمة ساخرة منَّوعة عن الجدل القائم وقتئذ حول الأدبين المعاصر الحديث والكلاسيكي القديم، وهو موضوع شغل بال الكثيرين في انكلترا وفرنسا في القرن السابع عشر.

٢) **حكاية برميل**: ATal Of aTub وهو مؤلَّف وصفه سويفت بأنه تعريض بسوء استخدام الإنسان للمعرفة والدين إلى درجة قضت على قيمتهما. ويشرح سويفت معنى العنوان في مقدمة كتابه فيقول: «من عادة البّحارة، عندما يهاجم حوت السفينة، إلقاء برميل في البحر باتجاه الحوت يشغله عن السفينة». وكذلك فإن قصة سويفت كُتبت لتلهي النقّاد عن مهاجمة نقاط الضعف في الكنيسة ولتسخر م. التطه، التاريخي للمذاهب المسيحية. وتظهر في هذا الكتاب نظرة سويفت الثاقبة، كما أنه يطوّر فيه تلك الموضوعية المميّزة التي تسم الكثير من أعماله.

هذان المؤلفان أكسبا سويفت إعجاب رؤسائه في الكنيسة الإيرلندية أيام كانت الموهبة الأدبية والفكرية جوازاً للوصول إلى أعلى المراكز في الدولة. وهكذا كلفته الكنيسة بمهام خاصة في انكلترا عند حكومة الأحرار Whigs أولاً، ثم عند حكومة المحافظين Tories التي انضم إليها فيما بعد. ولقد أصبح سويفت ذا نفوذ كبير في لندن أثناء حكم المحافظين من عام ١٧١٠ حتى وفاة الملكة «آن» عام ١٧١٤. لكنه عاد إلى دبلن كعميد لكاتدرائية «سانت باتريك» عند سقوط حكومة المحافظين، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من حياته السياسية.

كانت هذه السنوات الأربع، من عام ١٧١٠-١٧١٤، أهم فترة في تجربة سويفت السياسية، وقد كتب باستفاضة عن وجهة نظره الشخصية بصدد تلك الفترة الحاسمة من تاريخ إنكلترا، معبّراً عن آماله ومخاوفه في **يوميات لأستيلا** Journal To Stella، حيث يصوّر شخصاً، ما هو إلا سويفت نفسه، وفتاة، ليست سوى أستيرجونسون التي أحبها وأبدى تجاهها عاطفة أصيلة، وإن يكن في ذلك بعض الشك. ومن المحتمل أن تكون أستير جونسون هي ابنة وليم تمبل غير الشرعية. ويظن بعض النقّاد أنها أصبحت زوجة سويفت. وهي في كل

الأحوال كانت صديقة له طيلة الوقت، ومن أجلها كتب من لندن يومياته التي تكشف عن مقدار الإخلاص في قلب إنسان كثيراً ماتمّ تصنيفه كمبغض لبني البشر.

كانت لندن آنذاك في حالة من الغليان السياسي إثر سقوط وزارة الأحرار التي يتزعمها «غدلفن» والتي حلّت محلها وزارة المحافظين بزعامة «هارلي» و«ستجن» بعد الانتخابات العامة التي أسفرت عن حصول المحافظين على أغلبية ساحقة وسيطرتهم الكاملة على مجلس العموم، كما كانت الدعوة إلى السلام مع فرنسا، المتحاربة مع إنكلترا وحليفاتها منذ بداية حكم الملكة «آن» عام ١٧٠٢، على وشك النجاح. وفي هذه الأثناء كان سويفت على اتصال دائم بعدد كبير من السياسيين الناقمين على الأوضاع السائدة. وسرعان ماطلب «هارلي» مقابلته، ووعده بمساندة الكنيسة الإيرلندية، وتلك هي المهمة التي سبق لسويفت أن أخفق في إنجازها مع حكومة الأحرار، وكان فشله أحد الأسباب العديدة التي بددت أمله في الحزب الذي عمل معه، ودافع عن سياسته، فانصرف عن الأحرار، وهاجم دوق مارلبورو الذي شنّ الحرب ضد فرنسا، وأصبح من أعوان حكومة المحافظين الجديدة التي رحبت به لأهمية الدور الذي يستطيع أن يلعبه بقلمه. وهكذا عمل سويفت رئيساً لتحرير صحيفة «الممتحن» وأصبح كاتب الحزب الرئيسي

ومستشاره الأدبي. وعندما تحركت الحكومة لإنهاء الحرب بتوقيع معاهدة «أترخت» ألّف كتيّباً بعنوان **سلوك الحلفاء The Conduct of The Allies**، وهو من أقوى حجج العصر السياسية وأكثرها شعبية، ساند فيها سياسة حكومة المحافظين مدافعاً عن معاهدة السلم مع فرنسا. كما ألّف في هذه الفترة مجموعة من الكتب مثل **رسالة حول امتحان السرّ الرباني**، **إلغاء المسيحية**، **ملاحظات حول معاهدة الحدود**، **الروح العامة عند الأحرار**. وكافأته حكومة «هارلي» على خدماته بتعيينه عميداً لكاتدرائية «سانت باتريك»، وهو مركز اعتبره سويفت، عن حقّ، أقلّ بكثير مما يستحق بعد المجهود الذي بذله في تأييده للحكومة.

وبموت الملكة «آن» وتولّي «جورج الأول» (من أسرة هانوفر) عرش إنكلترا سقطت حكومة المحافظين وفقد سويفت، بعودة الأحرار، الأمل في مركز رفيع في الدولة. فعلى أثر فرار «بلينغ بروك» إلى فرنسا وسجن «أوكسفورد» في قلعة لندن (وهما وزيران من المحافظين وصديقان حميمان لسويفت) اضطر سويفت إلى الإقامة في كاتدرائيته في دبلن. وباستثناء زيارتين قصيرتين لأصدقائه في إنكلترا، بقي حتى آخر أيامه في إيرلندا التي اعتبرها منفىً سياسياً وفكرياً، وإن لم يكفّ عن نشاطه فيها وإنما كانت قد بدأت المرحلة الثانية لنفوذه

السياسي في عشرينات القرن الثامن عشر، وذلك عندما ناصر الشعب الإيرلندي في مطالبه ودافع عن البرلمان الإيرلندي ضد وزارة الأحرار برئاسة «روبرت وولبول». وأصبح سويفت معبود الشعب الإيرلندي الذي أطلق عليه أسم «الوطني الإيرلندي» و«العميد العظيم». ويُحكى أنه عندما أراد «وولبول» أن يلقي القبض على سويفت في إيرلندا نصحه أعوانه بأنه لن يستطيع ذلك إلا إذا أرسل جيشاً من عشرة آلاف جندي للقيام بتلك المهمة، لأن الإيرلنديين سوف يقطعون «وولبول» إرباً في شوارع دبلن. ولقد جاء كتاب سويفت الرائع **رحلات جوليڤر** ثمرة لهذه المرحلة الثانية من حياته السياسية وهذا ماسنأتي على ذكره في حينه.

إذن، في عام ١٧١٤ انهارعالم سويفت من حوله وانسحب من الحياة العامة شاعراً بالهزيمة والفشل والإحباط. وبعد فترة من الاكتئاب الغامر والإحساس بأنه «سوف يموت في منفاه مثل الفأر المسموم في جحره»، لم يلبث أن استعاد حيويته وثقته بنفسه وأصبح، كما سبق له أن كان، «العميد الفطن» و«الرفيق المتحضّر» في مجتمع ايرلندا المتأخر. غير أنّ سنوات عديدة قد مرّت قبل أن يستعيد الطاقة الفائضة اللازمة للعمل الإبداعي، وقبل أن ينتقل إلى مرحلة من الإنتاج الأدبي تختلف عمّا سبق من حيث روعة التفكير والأداء وعمقهما.

وفي السنوات مابين ١٧٢٠-١٧٢٩ لمع سويفت، لاككاتب ذي اهتمامات واسعة ومهارة في الشعر والجدل المنثور والفكر الساخر فحسب، وإنما كفنان أديب ينتمي إلى عالم أرحب. وأخذ ينّمي صداقات جديدة في إيرلندا، كما أخذ يراسل أصدقاءه القدامى في إنكلترا، وبدأ نجمه يتألق مرة أخرى، وظهر في أوج عظمته كمؤلف لـ **رسائل درايبر** (١٧٢٤) و**رحلات جوليڤر**(١٧٢٦) و**اقتراح متواضع**(١٧٢٩)، هذا الكتاب الساخر بقسوة والمائج بالغضب، غضب الإنسان الذي نظر حوله وتأمل فلم يعجبه مارأت عيناه، فصبّ جام غضبه على ذوي الأملاك الغائبين عن أرضهم تاركين مسؤولياتهم تجاهها وتجاه مستأجريها. . . الأثرياء الذين ينفقون أموالاً طائلة في شراء البضائع الأجنبية غير مبالين بنتائج ذلك على وطنهم. . . الكاثوليكيين والبروتستانت بسبب صراعاتهم، وعلى الفقراء ذاتهم لاستكانتهم لوضعهم المهين، فكل هؤلاء قد تسببوا بطريقة أو بأخرى في أن تصل البلاد إلى ماآلت إليه من فقر وضعة وبؤس. ومن ثم فإن بطل كتابه يتقدّم باقتراح يعرض فيه فكرة ذبح الأطفال الرضّع من أبناء الفقراء عند إتمامهم العام الأول لكي يتم تقديمهم كطعام فاخر للأغنياء، ويجادل صاحب الاقتراح مبيّناً أن تلك هي أفضل وسيلة يتجنب بها هؤلاء الأطفال آلام الحياة. . . الخ. كل ذلك

بأسلوب ساخر عميق وعنيف في الوقت ذاته. وهذا الكتاب، مع **رحلات جوليڤر وتوصيات للخدم و كادينوس وڤانيسا** وغيرها، ينتمي إلى هذه الفترة الثانية المتألقة من حياة سويفت ونشاطه.

ولقد برز سويفت كشخصية مميزة في المجتمع الإيرلندي حتى وصل إعجاب الشعب به وحبه له إلى حدّ العبادة. ولم يكن سويفت مجرد كاتب سياسي يتأمل بسخرية أخطاء الإنسان ونقاط ضعفه، وإنما كان أيضاً مفكّراً مثقفاً جالس عظماء وكتّاب عصره، وإنساناً رقيقاً حنوناً في الوقت ذاته. وإذا ماكان البعض قد اعتبره مبغضاً لبني البشر، فإن ذلك مجاف للصواب. فلعله كان متكبّراً، متعجرفاً، لكن هذا كان ناجماً عن إدراكه المخيف لعدم توافق الانسان مع خصائصه، وممارسته سلوكاً مخالفاً لها. وسويفت، ببصيرته النفّاذة، لم يقبل أن يكتم أو يخفي شيئاً من اتهاماته للإنسان برفض العقل والخير كطريق في الحياة. وإذا كان متعجرفاً كشخص، فإنه كان متواضعاً في فلسفته. ومن أهم خصائص هذا التواضع وضوح نثره، ذاك الوضوح المصطبغ بنشاط عقلي شديد، بل بنشاط العقل الأكثر حيويةً في ذاك القرن. وإذا ماكان الناس قد مالوا إلى الاعتقاد بأن سويفت كان قد فقد قواه العقلية وأصيب

بلوثة جنون فإن ذلك كان بسبب مااعتبروه تشاؤماً قاتماً في نظرته إلى الإنسان وخاصة في كتابه الرابع من **رحلات جوليڤر**، أي رحلة جوليڤر إلى بلاد «الهوينوهمز».

* * *

*) رحلات جوليڤر:

رحلات جوليڤر عمل مأساوي، أو هو، على وجه التحديد، عمل أقرب إلى المأساوية من أي عمل أدبي آخر ظهر في القرن الثامن عشر. وتكمن المأساة في اللاعقلانية، كما يراها سويفت، التي تسود حياة الانسان في جميع تصرفاته وسلوكه. فلقد بنى سويفت عقيدته- وهو ابن العصر الأغسطي أو «عصر العقل»، كما سُمِّيَ- على العقل وقيمته الأساسية في السلوك البشري، وثار عندما افتقده في صميم الإنسان. و**رحلات جوليڤر** تعبير عن غضب الكاتب من حماقات الإنسان ورذائله، وعن شعوره الغامر بالقصور المأساوي لدى بني البشر.

ومع ذلك، فإن الكتاب من روائع الأدب الهزلي، ومن الخطأ اعتباره نتاج يأس قاتم. ورغم أن الغضب والاحتقار

والاشمئزاز أساس جميع كتابات سويفت الساخرة، إلا أنه كتبها تحت تأثير اعتقاده الراسخ بأن رؤية الذات ومعرفتها على حقيقتها ستؤدي في نهاية الأمر إلى السلوك السليم. وكان هدفه من كتابة **رحلات جوليڤر**، وكما قال هو نفسه، «إصلاح العالم»، الأمر الذي يوحي بالأمل لابالتشاؤم. ويؤكد ذلك أيضاً روح الفكاهة المرحة المتوغلة في الرحلات والتي تنفي ماأصرّ عليه عدد من النقّاد من أنه نتاج عقل مريض على شفا الجنون. ففي هذه الروح دليل قاطع على صحة سويفت العقلية والروحية عندما كتب الرحلات. أما مرضه فلم يُصب به إلا بعد ظهور الكتاب بسبعة عشر عاماً. والهزل والمرح والفكاهة في **رحلات جوليڤر**، كلها تخدم السخرية، والتي هي هدف سويفت الأساسي. فالسخرية أشدّ شراسة من الهزل في هدفها الأخلاقي لأنها تقيس السلوك الانساني بمقارنته مع النموذج المثالي وليس العادي، وترفع أمام ناظريّ القارئ مرآة تعكس فيها صورة مشوهة مبالغاً فيها لحياته، لايلبث - إن كان على قدر من الوعي - أن يكتشف فيها صورته هو. ويكون وقع الصدمة بمقدار الهوّة التي تفصل بين المقاييس الأخلاقية التقليدية وبين السلوك الواقعي.

وسويفت الذي «لم يستطع أن يغفر للإنسان أبداً كونه حيواناً ثديياً فقارياً وروحاً خالدة معاً»، على حدّ تعبير «ألدوس هكسلي»، رفض تعريف الإنسان بأنه حيوان «عاقل» وعرّفه بأنه حيوان «ذو قدرة على العقل»، وكان قد كتب في خطاب إلى صديقيه «بوب» و«بولينغ بروك» قائلاً: «أقول مع ذلك إنني لاأكره الجنس البشري، بل إنكم أنتم الآخرون الذين تكرهونه، لأنكم تريدون الإنسان حيواناً عاقلاً، وتغضبون لخيبة أملكم فيه. أما أنا فلم أقبل ذلك التعريف أبداً، وفكّرت في تعريف آخر خاص بي». فهو يتألم لأن الإنسان لايستغلّ قدراته العقلية أحسن استغلال، بل يتصرّف كأنه أقل بكثير في مستواه العقلي والخلقي مما أراده الله. لقد أراد سويفت أن يكتشف حقيقة الإنسان وطبيعته من خلال تجاربه الخاصة ومعرفته بسلوك معاصريه، فجاءت الصورة التي رسمها تحفة خالدة.

تنتمي **رحلات جوليڤر** إلى «عصر العقل»، هذا العصر الذي كان من أكثر العصور ملائمةً للأدب الساخر، حيث ساعد الإيمان السائد آنذاك بالطبيعة والعقل على انتشاره، لدرجة أن النصف الأول من القرن الثامن عشر أصبح العصر الذهبي لذلك النوع من الأدب. كما تنتمي هذه الرحلات إلى نوع خاص من أدب الرحلات المتصل بالتراث الأدبي الفكري

الأوربي، الذي دفع بعض الكتّاب والمفكرين إلى خلق رؤى لمجتمعات غريبة، إما أسطورية وإما مثالية، بهدف دراسة الفكر السياسي المعاصر، فهذا مافعله «روجر بيكون» و«توماس مور» وسيرانودي برجراك»... بل وقبلهم «أفلاطون» أيضاً.

ورحلات جوليڤر سلسلة من «الجمهوريات المثالية» ومجموعة من «الرحلات الفلسفية» تتسم تارة بالواقعية وتارة بالخيال المبالغ فيه. والكتاب أيضاً رحلة استكشاف ساخرة في خفايا الطبيعة البشرية، يكشف عن دخائلها من خلال ملاحظات الرّحالة جوليڤر، وعن ظواهرها من خلال النظم السياسية والاجتماعية للبلاد التي يسافر إليها وسلوك سكانها. فأسفار جوليڤر رحلة أو تجربة ذهنيةتنتقل بالقارئ من حالة الرضا التام الذي يرتكز على الجهل إلى حالة الرفض التام الذي ينبع من اكتشاف الحقيقة المؤلمة اللاذعة المختفية وراء الخداع والوهم اللذين كان يعيش فيهما.

وجوليڤر، الرحّالة الذي اختاره سويفت كي يسرد تفاصيل مغامراته، هو شخصية مستقلة، يجب أن لانخلط بينها وبين المؤلّف كما حدث مع كثير من النقّاد. وجوليڤر نموذج للرجل الانكليزي العادي متوسط الحال مادياً، وغير المتميز عقلياً،

واسع الحيلة وشجاع، وصاحب فضائل جمّة، لكنه يقع في كثير من الأحيان فريسة لخداع النفس وأنصاف الحقائق. إنه أقرب إلى ذهن القارئ، وقد اختاره سويفت كأداة لتأمل المجتمع البشري الأوربي، وخاصة الإنكليزي في القرن الثامن عشر الذي تنتمي إليه الشخصية. ولقد حرص سويفت على تقديمه بدرجة من الواقعية تمكّن القارئ من التماهي معه، إلا أنه تماهٍ محدود وليس كاملاً، ومايتحكّم في درجته إنما هو أداة السخرية التي تدفع بالقارئ إلى الفصل بينه وبين جوليڤر. وعند ذلك يجد القارئ نفسه ناقداً لجوليڤر وناقداً لذاته في الوقت نفسه نظراً لتماهيه السابق معه في بعض نواحي تفكيره وسلوكه. ويبقى أن نقول إن جوليڤر بين الأقزام هو غيره في بلاد المردة، ذلك أنه أداة يستخدمها الكاتب ليشوّه بها رؤيتنا لأنفسنا وللواقع، مثل المرآة المعوجّة التي تعكس الأشياء على نحو ملتوٍ، كما أنه وسيلة للانتقال بالقارئ بين المواقع الاستكشافية التي يستطيع منها أن يشرف على دخائل الطبيعة البشرية.

يزور جوليڤر في رحلاته أربعة بلدان مختلفة هي على التوالي:

١- ليليبت: بلد الأقزام.

٢- بروبدنجناج: بلد المردة.

٣- لابوتا وجاراتها، بلنباربي، جلبدبريب، والجناح بلاد العلوم والسياسة المجردتين.

٤- بلد الهوينو همز التي تحكمها الأحصنة العاقلة ويقطنها أفراد الياهو، الانسان الحيوان.

وكل زيارة لبلد من هذه البلدان تواجه جوليڤر بمواقف لم يسبق له أن مرّ بها.

١-رحلة إلى ليليبت:

يتّخذ سويفت أساساً لسخريته في رحلته الأولى، كما في التي تليها، المقارنة بين الحجمين الكبير جداً والصغير جداً. حيث يكتشف جوليڤر عدم تناسبه مع الظروف المحيطة به. ويجد سويفت في فكرة «سلسلة الوجود الهائلة» إلهاماً لرؤيته في هاتين الرحلتين، فضلاً عن الرحلة الرابعة، ذلك أن الفكرة القائلة بأن الإنسان يحتل مكاناً وسطاً في سلسلة الوجود كانت فكرة مألوفة أيام سويفت. وكان الكثير من الناس يعتقدون أن الوجود قد نُظِّم بإتقان ودقة على شكل درجات في «سلسلة وجود هائلة» ابتداءً من الخالق الذي يتبعه عدد لايحصى من الكائنات الروحانية والذهنية المجردة، إلى الإنسان والكائنات الحيوانية والأشكال المجهرية من الحياة، حتى ينتهي إلى

لاشيء. ويشغل الإنسان في هذه «السلسلة» وضعاً لايعرف فيه الراحة، لأنه يشارك لدرجة محدودة الكائنات الذهنية السامية في عقلها، بينما يشارك إلى درجة غير محدودة الحيوان في غرائزه الحسية. فالانسان «حلقة الوصل» و«نقطة الالتقاء» بين العقل والحسّ.

ولقد استخدم سويفت صورة الإنسان هذه، في موقعه الوسط من «سلسلة الوجود الهائلة»، كوسيلة للفكاهة والتهكّم والسخرية. وهو يضطرنا متلهّفين إلى تتبع أهل ليليبت وهم يحلّون المشاكل التي يواجهونها عند اكتشافهم وجود «الرجل الجبل» (جوليڤر) في بلدهم والذي يجب أن ينقلوه إلى وسط المدينة ويحضروا له الطعام ويصنعوا له سريراً. كما أننا نجد تسلية في وصف حيرة هذه الكائنات الصغيرة التي لايزيد طولها عن (٦) بوصات وهم يتفحصون الأشياء التي يعثرون عليها في جيوب جوليڤر - المشط وقطع النقود والمنديل والنشوق- دون أن يفهموا ماهيتها، وكذلك الساعة التي تبدو لهم بمثابة آلة هائلة «. . . ، ينبعث منها صوت لاينقطع مثل صوت طاحونة المياه» فاستنتجوا أنها «إما حيوان غير معروف أو الإله الذي يعبده»، لكنهم يميلون إلى الرأي

الأخير حيث أكّد لهم جوليڤر «أنه قلما يفعل شيئاً دون أن يستشيرها وقد سمّاها الوصيّ، وقال أنها تشير إلى الوقت المحدد لكل فعل في حياته». كما يتمتّع القارئ بطريقة استيلاء جوليڤر على أسطول «بليفسكو»، البلد المعادية لليليبت، وسحبه السفن وراءه في البحر ممسكاً بيد واحدة بالخيوط التي ربطها بها، فبدت قطع الأسطول التي تهدد كيان الأقزام مثل لعب الأطفال. وثمة مشهد العرض العسكري المقام على سطح منديل جوليڤر المنصوب على أعمدة وكأنه ساحة رهيبة. كما يستغل سويفت التناقض في الموقف بين المارد والأقزام لإثارة الضحك، مثلما يفعل عندما يشير إلى الشكّ الذي يساور القزم «فليمناب» بوجود علاقة غرامية بين زوجته وجوليڤر المارد.

بيد أن صغر حجم أهل ليليبت يؤكد نوعاً آخر من الضآلة هي الضآلة الأخلاقية التي تبدو في غرور أمبراطور ليليبت «الجبار، بهجة الكون ورعبه، الذي تمتد ممتلكاته خمسة آلاف «بلاس روج» - أي بقطر طوله حوالي اثني عشر ميلاً - حتى أطراف الكرة الأرضية. ملك الملوك، الذي هو أطول من أبناء البشر، وتصل رأسه إلى الشمس في علوّها، وتصل قدماه إلى

مـركـز الأرض. والذي يرتعـد لمجـرد إيماءة من رأسـه أمـراء الكون. لطيف كالربيع، مريح كالصيف، مثمر كالخريف، ومرعب كالشتاء». ومع ذلك فإنّ عبث ذلك الكائن الدمية لايغيب عنّا منذ أول مرّة يراه فيها جوليفر وقد وقف مختالاً بسيفه في يده وخوذته الذهبية على رأسه وكلاهما مرصّع بالجواهر الثمينة، فجوليفر يضطر، لكي يراه عن قرب، إلى الاستلقاء على جنبه حتى يصبح وجهه موازياً لوجهه. وهو يضعه في قبضته عدّة مرات منذ تلك المقابلة.

وتبدو سخرية سويفت أكثر وضوحاً عندما تظهر المقارنة بين ليليبت ومجتمع إنكلترا المعاصر. ومن أشهر مشاهد المقارنة الساخرة مشهد الألعاب البهلوانية التي يؤديها المتقدّمون للوظائف المرموقة في الدولة. وهم يتنافسون عليها بالرقص على حبل مشدود محاولين الاحتفاظ بها، «فالفائز الأول الذي لايهوي على الأرض يرقى إلى الوظيفة. وكثيراً مايصدر الأمر للوزراء الأوائل أنفسهم باستعراض مهاراتهم لإقناع الامبراطور بأنهم مازالوا محتفظين بها».

ثم ينتقل سويفت إلى لعبة أخرى لاتؤدّى إلا في مناسبات خاصة، ولايُسْمَح لأحد سوى الامبراطور والامبراطورة ورئيس الوزراء أن يستمتعوا بها. والحركات فيها أكثر تنوعاً،

ومن بينها حركة «الزحف تحت العصا»[١] التي توحي بالرياء والنفاق والخنوع الذي يتطلبه الحاكم لإبداء رضاه نحو أصحاب المهارات، والتي يخلع عليهم عند تأديتها أحزمة خاصة ليست سوى خيوط «واحد أزرق، والآخر أحمر، والثالث أخضر» على التوالي، «وقلما تصادف شخصاً عظيماً في هذا القصر إلا وقد تحلّى بهذه الأحزمة». وعندما يتبيّن القارئ أن هذه الأحزمة تمثّل أعلى الأوسمة التي يمنحها ملك إنكلترا للذين يتمتعون بحظوته، يبدأ القارئ بالتساؤل عن أوجه الشبه الأخرى بين ليليبت والمجتمع الإنكليزي، وعن مدى التطابق بين شخصيات القصر في ليليبت والمجتمع الإنكليزي، وعن مدى التطابق بين شخصيات القصر في ليليبت وبين الملكة آن والملك جورج الأول وابنه أمير ويلز الذي أصبح فيما بعد جورج الثاني، وعن مدى التطابق بين شخصيتي فليمناب وروبرت وولبول رئيس الوزراء أو الوزير الأول كما سُمِّي في ذلك الوقت، الذي استمرت رئاسته لوزارة الأحرار سنين طويلة، والذي صوّره سويفت كأكثر الرجال حذقاً في الرقص على الحبل لطول بقائه في الحكم. ويتبيّن القارئ أيضاً أن دولة بليفسكو في حربها مع ليليبت تمثّل فرنسا في حربها مع إنكلترا. وفي إشارة سويفت إلى الخدمات التي أدّاها جوليفر

لامبراطور ليليبت في حربه مع بليفسكو تذكرة بالخدمات التي أدّاها سويفت نفسه للقصر والوزارة دون أن يلقى من أيهما اعترافاً بالجميل، مما يفسّر قول جوليڤر في نهاية الرحلة الأولى عندما يتآمر البلاط والوزراء ضدّه: «ولذلك قررت ألا أضع ثقتي بعد اليوم في أمير أو وزير».

ولكن هذه الرحلة أعمق بكثير من أن تكون هجوماً عنيفاً مبنيّاً على تجربة شخصية محضة، أو محاولة للأخذ بالثأر ممن خذلوا طموح سويفت. فالكتاب كلّه، وبالذات الرحلتان الأولى والثانية، هجوم ساخر على الإنسان بوصفه حيواناً سياسياً واجتماعياً. وهذه الرحلة تكشف عن التفاهة والافتقار إلى المبادئ عند هذا الإنسان. وهي تمتد إلى أبعد من الشخصيات التاريخية والطقوس السياسية من «قفز» و«زحف» إلى القضايا السياسية والدينية التي شغلت بال العصر فيجسّدها سويفت في صورة حيّة عندما يرمز إلى حزبيّ المحافظين والأحرار اللذين كانا في صراع محتدم باسمي «الترامكسانز» (Tramecksans) و«السلامكسانز» (Slamecksans) أو بحزبي «الكعوب العالية» (High Heels) و«الكعوب المنخفضة» (Low Heels). فقد دفع حزب الأحرار إنكلترا إلى سلسلة من الحروب التجارية الدامية والمكلفة، أما حزب المحافظين فقد نجح خلال فترة حكمه القصيرة في توقيع اتفاقية السلام التي

غيّرت من معالم أوربا ومهّدت طريق الاستقرار في إنكلترا .
لكن الأوضاع كانت أكثر تعقيداً من ذلك، فمؤيدو المحافظين كانوا من ملاّك الأرض والمحافظين في الدين والاقتصاد والزراعة والقيم العامة، بينما كان حزب الأحرار من المساندين للطبقة التي بُني عليها ثراء المجتمع الانكليزي - أي طبقة التجار البرجوازيين المنشقّين عن الكنيسة الإنجليزية والتقدميين في فلسفتهم الاقتصادية وآرائهم الأخلاقية وقيمهم. وكان الأحرار من أنصار أسرة هانوڤر الملكية، بينما كان المحافظون من أنصار الملك جيمس الثاني المخلوع الذي فرّ إلى فرنسا، أي أنهم كانوا من مساندي القوى التي تهدد الأمة بحرب أهلية .

ورغم خطورة هذه القضايا التي كان يتوقف عليها مستقبل إنكلترا ونظام الحكم فيها، فقد تعمّد سويفت . . . أن يظهرها بمظهر تافه عابث، فهو يقول عن ميل الملك جورج الأول إلى حزب الأحرار وعن تردد ولي العهد في اتجاهاته السياسية: «إن الكعب الامبراطوري أكثر انخفاضاً من كعوب أيٍّ من أعضاء حاشيته بمقدار درّ (وحدة قياسية في ليليبت اخترعها سويفت) على الأقل. . . ونلاحظ أن ولي العهد يميل إلى حدٍّ ما إلى أصحاب الكعوب العالية، ومن الواضح أن واحداً من كعبيه يبدو أكثر ارتفاعاً من الآخر، مما يجعله يعرج في مشيته».

أما القضية التي أثارت جدلاً طويلاً حول المسيحية والانشقاق الديني في إنكلترا، والتي كانت من القضايا الهامة في عصر سويفت، فقد صورّها بالأسلوب الساخر نفسه مقللاً في الظاهر من خطورتها. لقد حوّل سويفت الصراع الديني المرير بين الكاثوليك والبروتستانت والعداوة بينهما إلى مشكلة «كسر البيضة»، كما سمّاها، وتتلخص المشكلة في السؤال «هل من الأفضل كسر البيضة من القمة العريضة أم من القاع الضيق؟» وسمّى الكاثوليك «أتباع القمة العريضة» (Big En-dians) والبروتستانت «أتباع القاع الضيق»(Little Endians). وبهذا فإنّ القضية التي قاست منها إنكلترا سنين طويلة والتي أدّت إلى اضطهاد ديني وثورة قلبت نظام الحكم من ملكي إلى جمهوري، تبدو في الرحلة إلى ليليبت سخيفة تافهة نتيجة للصورة التي تظهر عليها. وتنحصر سخرية سويفت في السبب العابث الذي قدمه كتفسير للاضطهاد الديني الذي أدّى إلى موت آلاف المواطنين الكاثوليك، وهو رفض «أتباع القمة العريضة» الإذعان لكسر بيضتهم من «القاع الضيق».

ويقع سويفت في تناقض في الفصل السادس من هذه الرحلة حيث يتغلب المفكّر لديه على الفنان، إذ نرى جوليفر

عائداً من رحلته شخصيةً مثالية تقدمية راجعةً من بلَد مثالي وحاملةً معها أخبار هذا البلد الذي فاق بلاده في النظم السياسية والتعليم والأخلاق. فبدلاً من أن تسن ليليبت «القوانين لحماية الملكية الفردية وتثير في الأفراد الخوف من القانون وتجبرهم على الإذعان له، فإنها تشجع الناس على الفضيلة، ونظمها وتكرّم أولئك الذين يحترمون القانون وتعاقب الخارجين عنه. وتهدف الأنظمة والقوانين في الدولة إلى إقناع المواطن بأن السلوك الفاضل في متناول الجميع وفيه مصلحة للجميع، وهم يعتقدون أنّ كل إنسان يستطيع التحلّي بالصدق والعدل والاعتدال وماإليها من صفات. وبناءً على ذلك فإن حكم البلاد ليس أمراً عسيراً ولا يتطلب مهارة فائقة».

وإذن فإن الرحلة إلى ليليبت تتحول إلى شكل جديد من أشكال أدب الرحلات «اليوتوبية» فتتناول النواحي التي تبعث على الإعجاب بالأنظمة والقوانين والتربية والتقاليد الموجودة في ليليبت، والتي تفتقر إليها إنكلترا. ومن الملحوظ أن النقد السياسي والاجتماعي والتعليمي الموجَّه إلى إنكلترا هو أساساً نقد أخلاقي.

وعندما حاول سويفت أن يعطي تفسيراً لهذا التناقض، جاء التفسير واهناً، ومفاده أن الأنظمة المثالية والسلوك الشريف

والأخلاق الطيبة، التي وصفها جوليڤر، ماهي إلا أثر باهت من آثار الماضي التي اندثرت بمرور الزمن عندما تعرّض أهالي ليليبت لقوى الفساد.

وتنتهي الرحلة مرة ثانية بصورة غير مشرّفة لأهالي ليليبت، بفسادهم ونفاقهم وخداعهم وقسوتهم وشرّهم، بينما يبدو جوليڤر ليس أكبر حجماً وحسب، وإنما أعظم خُلقاً وسلوكاً من أهلها الذين لايتناسب صغر حجمهم مع مدى خطورتهم واتساع شرورهم. فعند رفض جوليڤر القضاء على بليفسكو قضاءً مبرماً، بعد أن ساعد أهل ليليبت ضدها، يتّهم بالخيانة ويُحكم عليه بالموت ثم يُخفَّف الحكم إلى فقأ عينيه وتركه يموت جوعاً، فيقرر جوليڤر عندئذ الهرب لأن بقاءه فيه خطورة على حياته وقد يعرّضه دفاعه عن نفسه إلى تدمير ليليبت وهو لا يرضى لنفسه ذلك الفعل القاسي. وهكذا يجمع حاجياته ويهرب أولاً إلى بليفسكو ومن ثم يبحر على مركب إلى إنكلترا، وقد ملأ جيوبه بنماذج من سكان ليليبت الصغار الذين يسببون إثارة واهتماماً كبيرين في إنكلترا، ويؤكدون حقيقة مايرويه جوليڤر عن رحلته.

٢- رحلة إلى بروبدنجناج

في بروبدنجناج، جوليڤر هو القزم، ومكانه في أسفل السلسلة «ناظراً إلى أعلى» كما ينظر القزم إلى المارد، بينما كان

في الرحلة الأولى في أعلى السلسلة «ناظراً إلى أسفل» كما ينظر المارد إلى القزم. وتفوق أهل بروبدنجناج ليس تفوقاً في الحجم وحسب، وإنما يبدو في نهاية الرحلة تفوقاً أخلاقياً أيضاً، وهذا هو التفوق الحقيقي.

يجعل سويفت حقل القمح مكان أول لقاء بين جوليفر والمردة، بين سنابل القمح التي تشبه الغابة في كثافتها، وذلك ليؤكد الشبه بين جوليفر القزم والحيوان الصغير، الذي يحاول أن يفرّ هارباً حين يشعر بمنجل الفلاحين في موسم الحصاد. وعندما تراه امرأة الفلاح تعتقد أنه فأر أو عنكبوت فتصرخ وتتراجع.

وتطغى روح الفكاهة على الجزء الأول من الرحلة فتكثر المواقف الفكاهية المبنيّة على فكرة النسبية في الحجم (في أحد المشاهد يكاد الطفل المارد أن يبتلع رأس جوليفر، وفي مشهد آخر يلقي مهرج البلاط القزم بجوليفر في صحن من القشدة حيث يكاد يغرق لولا أنه يجيد السباحة، كما أنه يقع في أسر قردة تصرّ على إطعامه معتقدة أنه أحد أبنائها . . . الخ). ونحن في هذه المواقف الفكاهية لانجد أي أثر للسخرية.

بيد أن هذه الرحلة لاتستمر طويلاً على مستوى الفكاهة والمرح، فلاتلبث سخرية سويفت أن تطفو على السطح من

جديد فيستخدم المردة الطيبين من أجل توجيه ضربة قوية إلى غرور الإنسان، عندما يقدّم لأول مرة في الرحلات الشعور بالاشمئزاز من الجسد الآدمي، هذا الشعور الذي عُرف به سويفت والذي يتضاعف إلى درجة تجعله يسود الرحلة الرابعة إلى بلاد الهوينوهمز. ولعل في هذا الاشمئزاز رداً على فلاسفة القرن الثامن عشر الذين أُعجبوا بجسم الإنسان لكماله وإبداعه اللذين يتناسبان مع وضعه في نظام الكون. فالجمال والقبح مسألة نسبية. ويحسم سويفت الأمر بنفوره من الجسد البشري. هذا النفور الذي هو حرب خاضها سويفت طوال حياته ضدّ الجسد، والذي يُعَدُّ واحداً من خصائص كتابته. وأياً كان التفسير الشخصي لهذه النظرة النافرة، فإن المهم هو أنه استخدمها استخداماً فنياً ناجحاً ليكشف بها عن نواحي الإنسان الحيوانية، المادية منها والمعنوية.

ولابدّ من القول هنا إن سويفت لايتطرق إلى الرمزية فيما يتعلّق بالنفور من الجسد في رحلة بروبدنجناج، فاشمئزاز جوليفر ناجم في الواقع عن قصور في زاوية رؤيته نظراً لضآلة حجمه. فهو لايستطيع أن يرى إلا التفاصيل المكبَّرة البشعة من جسم المارد، بحيث يرى الجزء وليس الكلّ، وبذلك يفوته التناسق بالشكل الكليّ وتبدو التفاصيل مشوَّهة.

وكذلك فإنّ جوليڤر يفشل في تطبيق النظرة الشاملة على أخلاقيات أهل بروبدنجناج، فيفوته أيضاً مستواهم الأخلاقي الرفيع. وهنا تتكشّف سخرية سويفت اللاذعة في هذه المرحلة، حيث يبدو جوليڤر ضئيل الجسم وضعيف الخلق عندما يتباهى بإنجازات بلاده السياسية والتعليمية ونظامها الحزبي الرائع، وهي الأمور التي يعتبرها ملك بروبدنجناج عن حقّ فاشلة تماماً. ويلخّص سويفت في مشهد ساخر وجهة نظر الملك، حيث يمسك بجوليڤر بين الإبهام والسبابة ويربت عليه برقة مستفسراً بتهكّم عن ميوله السياسية فيسأله «وهل أنت من حزب الأحرار، أم من حزب المحافظين؟» وكأنه يلقي سؤاله على حشرة صغيرة. ومع ذلك فإن سويفت لا يبني نقده لمجتمع جوليڤر على المبالغة في مثالية مجتمع بروبدنجناج، فالمردة لا يختلفون عن البشر إلا في حجمهم، وهم مزيج من الخير والشرّ، من الحكمة والحماقة، ويتصفون بالطيبة لكنهم قساة في بعض الأحيان. وهكذا نرى أن سويفت يصوّر كيف يطوف الفلاح المارد بجوليڤر في أنحاء البلاد جرياً وراء المكاسب من خلال عرضه على الأهالي مقابل مبلغ من المال كما يفعلون في السيرك، دون مراعاة للإرهاق الذي يسببه لجوليڤر ذي البنية

الضعيفة. وأهل بروبدنجناج يمتازون، كصفات عامة ورئيسية، بالبساطة والتواضع والأمانة وحسن المعاملة. وأهمُّ من هذا أنهم يحبّون السلام ويكرهون الحرب، ولا يسعون إلى المجد الزائف، وإنما يبتغون الحياة الهادئة غير المعقدة. ويمثّل ملكهم الصفات التي يعجب بها سويفت «التفهّم الممتاز والعقل والحصافة»، ويتخذه سويفت حكماً على المجتمع الإنكليزي والأوربي الذي يفخر به جوليڤر، ومقياساً للزيف الأخلاقي الذي يدافع عنه دون وعي. ومن خلال وجهة نظر هذا الملك العاقل يبدو جوليڤر قزماً في قصوره الخُلقي كما هو في ضآلته الجسدية. وعندما يسأل الملك جوليڤر تقديم تقرير عن نظام الحكم والسياسة والتعليم والتربية في بلاده، يقدم له جوليڤر ذلك باعتداد وحماسة عاليين، لتبدأ بعدئذ أسئلة الملك الواضحة التي تحوي إشارة إلى الجواب، إلى أن يأتي النقد اللاذع والضربة القاضية في نهاية المشهد عندما ينطق الملك بحكمه بعد أن يكون القارئ قد انتقل بتعاطفه إلى وجهة نظر الملك السليمة الصائبة: «لقد ذُهِلَ الملك تماماً للتقرير التاريخي الذي قدمته له عن أحوالنا خلال القرن الماضي. واعترض عليه قائلاً إنها ليست إلا سلسلة من المؤامرات والتمرد وجرائم القتل والمذابح والثورات والنفي. وكلها من أسوأ آثار الجشع والحزبية

والانشقاق والنفاق والغدر والقسوة والحنق والكراهية والحسد والشهوة والنكاية والطموح».

ولايسع الملك إلا أن يستنتج مما قاله جوليفر أن أهل بلاده في مجموعهم «جنس دنيء مقيت من الحشرات، بل إنهم أبغض ماسمحت له الطبيعة في أي زمن من الأزمنة أن يزحف على وجه الأرض».

ولاتنتهي سخرية سويفت عند هذا الحدّ، حيث يكشف جوليفر في حواره التالي مع الملك عن نواقص خطيرة فيه تجعله نموذجاً للجنس البشري المدمِّر البغيض الذي أشار إليه الملك في تعليقه. فيظهر جوليفر في أصغر حجمه وأقصى دناءته عندما يعرض على الملك هدية ثمينة يعتقد أنه لايمكن لأحد بقواه العقلية أن يرفضها. وهذه الهدية هي «سرّ اكتشاف البارود». فيأتي ردّ فعل الملك معاكساً لما كان ينتظره جوليفر، إذْ يرتاع الملك للتفاصيل الفظيعة التي رواها جوليفر، ويعتبره مجرداً من الإنسانية لأنه يروّج تلك الأفكار الرهيبة ويحرّم عليه ذكر الموضوع كليةً: «لقد ارتاع الملك للوصف الذي قدمته لتلك الآلات الفظيعة، وللاقتراح الذي عرضته عليه. ولقد تعجّب كيف تستطيع حشرة عاجزة دنيئة مثلي (هكذا كان تعبيره) أن تفكر بهذا الأسلوب الوحشي وكأنه شيء عادي، دون أن تبدي

أي تأثّر على الإطلاق لمشاهد الدم والخراب التي رسمتها كنتيجة طبيعية لتلك الآلات المدمرة. . . أما من جهته هو فقد صرخ مؤكِّداً أن الاكتشافات الجديدة في الفن والطبيعة هي أكثر الأشياء التي تدخل السرور إلى قلبه، . . . ».

وإذن فإن أهل بروبدنجناج في هذه الرحلة هم أيضاً ممثلون للبشرية بما فيها من عيوب ومحاسن. فالملك كائن ذكي وعاقل وفاضل، وتمثل أخلاقيته أحسن مافي الانسان من إيجابيات، ومع ذلك فهو ليس نموذجاً مثالياً فوق مستوى البشر.

إن القارئ لايجد أية صعوبة في مطابقة وجهة نظره مع وجهة نظر الملك والعزوف عن وجهة نظر جوليڤر. وتتلخص رحلة بروبدنجناج بأنها هجوم عنيف على سلوك ودوافع الإنسان الجنونية، ودفاع عن السلوك الأخلاقي في جميع نواحي الحياة.

٣- رحلة إلى لابوتا، بلنباربي، جلبدبريب، ولجناج:

"في الرحلة الثالثة يسخر سويفت من بلادٍ فشلت في الاعتراف بالبديهية التي مفادها أن هدف العلم والتكنولوجيا يجب أن يكون أولاً وأخيراً الفائدة التي تعود على الإنسان.

كما يكشف سويفت عمّا لابدّ أن يحدث في مجتمع أُطلِقَ فيه العنان للاتجاه النظري البحت. والسخرية هنا أكثر شمولاً إذْ هي موجهّة إلى المواقف والأنظمة المعاصرة وإلى السياسيين ورجال العلم ومطوريّ الزراعة والمخترعين والمكتشفين، وليست موجهة إلى أشخاص أو سياسة بالذات. ويمكن القول باختصار إنَّ سويفت يسخر هنا من سوء استخدام الإنسان لعقله، هذا السوء الواضح في الاتجاه إلى الفصل بين العلم واحتياجات الإنسان. ففلاسفة لابوتا، ومعناها الجزيرة الطائرة، تائهون في تجريدات الرياضيات والموسيقى والفلك، وبدلاً من أن تتبع الرياضيات الأشكال الطبيعية للأشياء، فقد شكّل اللابوتانيون الأشياء لتتفق مع الرياضيات، وأُعجبوا بالنساء لا لجمالهن وإنما للتشابه بين أجسامهن وبين أشكال معينة. وطبّقوا أسلوباً رياضياً معقداً في حياكة الملابس، فجاءت غير متناسقة مع مقاييس أجسامهم. وهم منقطعون عن العالم المادي تماماً. ويرمز سويفت إلى ذلك بصورة رجل ذي عين مصوبّة إلى داخله والعين الأخرى إلى السماء. وهم يكرّسون كل جهودهم لأبحاث عابثة في محاولة لـ«غزل خيوط العنكبوت» و«استخراج أشعة الشمس من الخيار»

و«تليين الرخام لصنع وسائد صغيرة من أجل حفظ الدبابيس» «واستخراج الحرير الملّون من الذباب» و«اكتشاف طريقة للبناء من أعلى إلى أسفل». وهم إلى ذلك لديهم «المنبّهون»، أي المرافقون الذين ينبّهون الباحثين إلى مالايسمعونه أو مالايرونه، والذين «يحملون في أيديهم قرباً منفوخة تحوي الفول اليابس أو الحصا الصغيرة الحجم ينفخون بها قرب أذن الباحث الذي يرافقونه». وليس هذا سوى تصوير ساخر للهوّة الشاسعة بين «عقل» أهل لابوتا وحواسهم.

ولابوتا الجزيرة الطائرة هي أيضاً صورة حية لما يحدث حين تتركّز السلطة السياسية في أيدي مجموعة من البشر غير العمليين الميّالين إلى التجريب والعفوية، والبعيدين في تفكيرهم عن احتياجات البشر الأولية. وتبدو مآسي هذا النوع من الحكم وخطورته عندما يزور جوليڤر «بلنباربي» التي تحكمها لابوتا فيظهر لنا كيف أن الجزيرة الطائرة عديمة الصلة بالبلاد التي تحكمها وتستغلها، وسويفت يشير هنا بالذات إلى حكم إنكلترا الظالم لإيرلندا.

وموقف جوليڤر في هذه الرحلة هو موقف الرجل العاقل المتزن الذي يتعجّب مما يراه. وهو يلعب دور المتفرّج الذي يلاحظ ويسجّل دون أن يتفاعل أو يتأثر. وفي الوقت نفسه فإن

سخرية سويفت لاتمسّ القارئ فتفقده احترامه لنفسه وإنما يقف هو الآخر خارج نطاق ذلك العالم المصاب بلوثة الجنون. بيد أن السخرية لاتلبث أن تأخذ لوناً أشد قتامة، وشكلاً أكثر عمقاً، ويدخل القارئ مع جوليڤر من جديد عالم الأوهام وخداع النفس في الرحلة إلى «الجناج».

ففي هذه الرحلة يبني سويفت سخريته مرة أخرى على موقف خيالي خرافي، ذلك أن لجناج هي بلد الـ«سترلد بغز» (Struldbuggs)، أي الخالدين، الذين يشكّلون نسبة صغيرة من سكان تلك البلاد. وكما هو الحال في جميع رحلات جوليڤر، فإن سويفت يصوّر الفكرة المجردة، وهي هنا فكرة الخلود، في صورة مجسّدة ملموسة «فالخالدون يولدون ببقعة حمراء مميّزة فوق العين اليسرى، وتتحول هذه البقعة في مراحل متأخرة إلى اللون الأخضر، ثم الأزرق، وفي نهاية الأمر إلى الأسود». وعندما يسمع جوليڤر بهؤلاء «الخالدين» يسيطر عليه حلم الخلود الواهم الذي يجد فيه سعادة وحكمة لاحدود لهما. لكن الرجل الذي تحدث إليه جوليڤر من «الخالدين» يبتسم ابتسامة المشفق على سذاجة جوليڤر، ويأخذ في وصف حياة الـ«سترلد بغز» كما هي في الواقع وليس كما تصورها جوليڤر. يقول هذا الرجل إنهم يعيشون حياة طبيعية

حتى سن الثلاثين، ثم تبدو عليهم علائم الكرب والغمّ حتى سن الثمانين، وعندئذ لاتظهر عليهم حكايات المسنين وضعفهم عامةً وحسب، بل تظهر إلى جانبها صفات أخرى تنشأ من «المصير المريع»، أي الحياة الأبدية التي تنتظرهم. فهم لايتصفون بالعناد وضيق الخلق والطمع والاكتئاب والغرور والثرثرة فقط، وإنما يتصفون أيضاً بفقدان المشاعر الطبيعية نحو الآخرين، ويحسدون صغار السن على ملذاتهم، كما يحسدون الموتى على تحررهم من حياة أصبحت كريهة إليهم. وهم يتذكرون بشكل غير دقيق الأشياء المتعلّقة بشبابهم وكهولتهم فقط. أما أولئك الذين هم أسعد حظاً فلا يتذكرون شيئاً على الإطلاق. وفي سن الثمانين يُعتبرون أمواتاً بنظر القانون، أما في التسعين فيفقدون حواسهم وتستمر أمراضهم، ويحرمهم فقدان الذاكرة من سلوى القراءة. وباندثار لغة الأكبر سناً منهم يصبحون غرباء وسط أهلهم. وبهذا يعيشون في وحدة أزلية قاتلة. و«أقوى المشاعر التي تسيطر عليهم هي الحسد والرغبات العقيمة. لكن الأشياء التي يبدو أنهم يوجّهون ضدها مشاعر الحسد أساساً هي رذائل الأصغر سناً، وموت الأكبر سناً. فعندما يتأملون الأول يجدون أنفسهم منقطعين عن أي احتمال للمتعة، وعندما يرون جنازة

الآخر يندبون ويتبرمون لأن غيرهم رحل إلى مأوى للراحة لا أمل لهم فيه أبداً».

وينتهي كل هذا بجوليفر إلى أن يتحرر من أوهامه ويستيقظ من أحلامه ويتعلّم أن الحياة تجربة صعبة وجادة، وأن الإنسان محدود في إمكانياته وقدراته.

٤- رحلة إلى بلاد الهوينوهمز:

يبدو سويفت في أوج عظمته كأديب ساخر في الرحلة الأخيرة إلى بلاد الهوينوهمز، وهي الرحلة التي هاجمها النقّاد بعنف لأنهم أساؤوا فهم معناها، وكان ثاكري (١٨١١-١٨٦٣)، الروائي والناقد الفيكتوري الشهير، واحداً من أولئك الذين أغضبتهم الرحلة إلى درجة أنه نصح مستمعاته من السيدات، في محاضرة ألقاها عن سويفت في لندن، «بالامتناع عن قراءتها لأن سويفت رجل فاجر تماماً، يائس، مجنون، وعواطفه وحشية، وقوته التي يتباهى بها وضيعة. وهو وصمة للحيوان كما يستحق أن يكون فعلاً. والجهل أحسن من «العقل»، الذي يتشدق به». ويصف ثاكري الأسلوب الذي يستخدمه سويفت في هذه الرحلة بأنه «أسلوب «الياهو» الذي يسخر منه سويفت نفسه». ويتابع: «إنه وحش مريع يصرخ ويزمجر ضدّ الانسانية. قذر في

فكره، ساخط، هائج وبذيء». والواقع أنَّ الرحلة تترك مثل هذا التأثير على كثير من القرّاء إذْ إنها تصيبهم في كبريائهم كبشر. فالسخرية هنا لم تعد مجرد هجوم على سلوك الإنسان المعاصر وحياته الاجتماعية ونُظُمه السياسية، وإنما هي أكثر شمولاً، تتناول جشع الإنسان ودناءته وكبرياءه وأوهامه وتصرفاته الحمقاء في كل زمان ومكان.

ولاشكّ أن أثر الصدمة يرجع إلى كلٍّ من صورتي الهوينوهم «الحصان العاقل الناطق» والياهو «الإنسان الحيوان»، اللتين يقارن بينهما جوليڤر الإنسان. وهكذا نجد جوليڤر هنا بين «العقل» و«الحسّ» المجسدين في الهوينوهم والياهو على التوالي، بعد أن كان في ليليبت و بروبدنجناج بين المارد والقزم.

والهوينوهمز كائنات لاعلاقة لها بالجياد إلا في مظهرها الخارجي. وهي مخلوقات تبعث على الإعجاب في تلاؤمها التام مع العالم الطبيعي. إنها هادئة لطيفة عاقلة متزنة في أسلوب حياتها وسلوكها، صادقة لاتتحدث عن أشياء غير موجودة، لاتعرف الكذب ولاتحتوي لغتها على أية كلمة بهذا المعنى، وإنما هي تعبّر عنه بـ«الشيء غير الكائن». والفضيلة

عند الهوينوهمز هي المعرفة، وأساس تفكيرهم هو العقل والمنطق. وبلادهم تشبه إلى حدّ كبير الكمال الذي تصوّره أفلاطون في «جمهوريته» المثالية التي يحكمها الفلاسفة.

أما الياهو، وهو أقوى رمز ورد في أي عمل من أعمال سويفت، فهو نقيض العقل، أي أنه يرمز إلى العنصر الحيواني، في الإنسان، تلك الناحية غير المستنيرة، غير المتطورة، وغير العاقلة في الجنس البشري. ويشعر جوليڤر باشمئزاز لاحدّ له عندما يرى الياهو القبيح ظاهراً وباطناً. فشكله الظاهر القبيح المقزّز بالشعر الكثيف الذي يغطي جسده، ومخالبه الطويلة التي يستخدمها في التسلّق على الأشجار، ماهي إلا انعكاس لأخلاقيته المنكرة الكريهة. فهو جشع، حانق، حسود، غيور، مغرور، بليد، عبد للشهوة ولغريزة التملّك، خاوٍ فكرياً وعقلياً وعاطفياً. إنه أسير طبيعته الفاسدة وشهوانيته. وعلاقته ببني جنسه علاقة عدائية لأن رغباته لاتعرف الاعتدال.

وهذه المقارنة بين الهوينوهم والياهو، بين العقل والحسّ المجرّدين، ليست مقارنة بين نوعين مختلفين من البشر، فالهوينوهم أو الياهو لايرمزان إلى الإنسان على الإطلاق. وإنما الذي يرمز إليه هو جوليڤر الذي يشارك في طبيعة كلٍّ من

الهـوينوهـم والياهو طرفيّ النقيض. والحيلة التي يلجأ إليها سويفت في هذه الرحلة هي الفصل بين العنصرين الأساسيين اللذين يتحدان في الإنسان ذي الطبيعة الثنائية، وذلك كي يتمكن جوليڤر من أن يتأمل كلاً منهما في جوهره. ويحكم جوليڤر منذ الوهلة الأولى بنفوره من الياهو وإنكاره قرابته له وبانجذابه نحو الهوينوهمز وادعائه القرابة لهم. وتكمن سخرية سويفت في نظرة كلٍّ من الياهو والهـوينوهم إلى جـوليـڤـر، فبينما لايجد جوليڤر أي شبه بينه وبين الياهو، نجد أن الهوينوهمز يرون هذا الشبه واضحاً، بل يندهشون عندما يبدي جوليڤر مايدلّ على العقل والقدرة على الكلام مثلهم، فهو بالنسبة إليهم ليس إلا ياهو، وللتأكد من ذلك فإنَّ بعضهم يضع جوليڤر جنباً إلى جنب مع ثلاثة من الياهو بقصد المقارنة. وتكون الصدمة المرّوعة عندما تنجلي الحقيقة لجوليڤر شيئاً فشيئاً فجسم الياهو جسم إنسان كامل، مع بعض الاختلافات في حجم الأعضاء كالشفة والوجه والأنف، ولكنها اختلافات تشترك فيها جميع الأمم المتوحشة، أما يداه فتمثّلان يديّ جوليڤر إذا ماتجاهلنا طول الأظافر وخشونة راحة اليد وكثافة الشعر على ظهرها، والأقدام كذلك. ويكتشف أحد الهوينوهم ذلك عندما يرى جوليڤر نائماً وقد خلع ملابسه،

كما وهو يستحمّ في النهر حيث تراه أنثى شابة من الياهو فيثير فيها رغبة شهوانية باعتباره واحداً من أبناء جنسها، فتقفز إلى النهر وتعانقه بعنف ولا يستطيع أن يتخلص منها إلا حين ينقذه أحد خدم الهوينوهمز. وبعد هذه التجربة يصبح من المستحيل أن ينكر جوليڤر حقيقته «الياهووية» أو يخفيها.

ومع ذلك فقد اعترف الهوينوهمز بأن ثمة اختلافاً بين جوليڤر والياهو أساسه مظاهر العقل التي تبدو عليه. لكن هذا الاختلاف يزيد نفورهم منه بدلاً من أن يقربّه منهم. فمظهر العقل لديه ليس إلا «زيف وخداع... وهذا يجعله أحطّ من الياهو».

أما جوليڤر فقد بدأ بالإعجاب بالهوينوهمز وانتهى بقبول حكمهم عليه وعلى بني البشر عامةً، ولم يعد يطيق النظر إلى نفسه فيقول: «إذا ماتصادف أن رأيت انعكاس صورتي في بحيرة أو نهر، أدرت وجهي بانزعاج، شاعراً بالبغض نحو شخصي. إنني أحتمل مظهر الياهو العادي أكثر مما أحتمل مظهري». ولكن، مع ذلك، لايبدو أن سويفت قد أراد للقارئ أن يرى في الهوينوهمز مثلاً أعلى يُحتذى، بل على العكس فإنهم قد يثيرون الضحك أحياناً بل والنفور أيضاً. ونحن نشعر بالاشمئزاز من تفاني جوليڤر في حبهم. وعندما

نستمع إلى مناقشات مجلس الهوينوهمز التي تدور حول مصير جوليڤر والياهو نصطدم بحقيقة ذلك الجنس الذي يخلو من أية مشاعر إنسانية دافئة. ونتبيّن من نظرتهم للأشياء تصورّ حياة العقل وحده. وهذا التفسير الحديث لسخرية سويفت من الهوينوهمز يتفق مع أسلوب سويفت المعروف في السخرية ورفضه الدائم إعطاء القارئ أهدافاً إيجابية واضحة لالبس فيها. إنها صفةالتركيب والأسلوب غير المباشر في سخرية سويفت، والذي كان أول من لفت الأنظار إليه هو الناقد ف. ر. ليڤيز في مقال مشهور بعنوان «سخرية سويفت».

وأخيراً، فإن **رحلات جوليڤر** هي إبداع سويفت الإنسان الذي جمع بين صفات الياهو والهوينوهم. فالغضب والغيظ والحدّة والعنف والكراهية التي عبّر عنها سويفت، كلّها من صفات الياهو، ولكنه وجّهها ضد أسوأ الرذائل لأنه أراد للإنسان أن يكون فاضلاً لامجموعة مشوّهة من الشرور. وإذا ماكان سويفت سوداوياً أو متشائماً فلأنه يترجم هذا الغضب من الإنسان بسبب كل نقائصه وقصوره عن تحقيق الكمال. ويتوسّل سويفت إلى ذلك بسخرية عميقة عبقرية تقوم أساساً على المفاجأة والنفي، فوظيفتها الأولى أن تقهر المألوف وماتعوّدنا عليه وتثير خوفنا وحيرتنا وتناقش مسلّماتنا، على

حد تعبير الناقد ف. ر. ليڤيز. ورحلات **جوليڤر** هي إنتاج روح متقدة وعقل متيقّظ عبقري وضع تهكّمه الساخر بأسلوب ممتع جذاب وبقوالب فنية عبقرية، ومن أجل الإنسان في النهاية على الرغم من كل شيء.

* * *

وغريغوري غورين، شأنه في ذلك شأن سويفت، يفاجئنا ويقهر مألوفنا ويثير دهشتنا وتساؤلاتنا. وهو فوق كل شيء لايخشى التنطح لَمسْرَحَةِ إبداع عظيم مثل إبداع سويفت، بل ينبري له كي يعيد صياغته ويثير من جديد تساؤلات قديمة - جديدة.

ومسرحية غورين هذه هي مسرحية بالمعنى الشامل للكلمة، ونوع من اللعبة مع موضوعات وأسماء معروفة جيداً. ومثل هذه المسرحيات ليست جديدة في القرن العشرين وإنما هي مستمدة من المسرح الفرنسي العقلاني حيث يختلط الكوميدي بالتراجيدي وإلى هذا الشكل الفني يميل غورين منذ مسرحيته الشهيرة **انسوا هيروسترات**.

ماالذي تمسرحه هذه المسرحيات؟ وعلامَ تدور؟ إنها تمسرح الحياة والموت والحب والكراهية والفن والفنانين، وهي في الوقت ذاته هزل وسخرية من الحياة والموت والحب والكراهية

والفن والفنانين. وهي تمسرح أيضاً، وإلى حدّ بعيد، تلك الأشكال من سقط المتاع والهراء في وجودنا. ومثل هذه المسرحيات تقحم كلاً من القرآء والجمهور بحيث يأخذون بأنفسهم دوراً في اللعبة الفكرية المحتدمة على خشبة المسرح لأنها محتدمة فوق مسرح الحياة.

وفي هذه المسرحية، «البيت الذي شيّده سويفت»، يتمّ التعامل مع الأحداث بأسلوب «الخطف خلفاً». فسويفت كتب مؤلّفاته الساخرة المتألقة اللاذعة ومرّ زمن مديد على موضوعاتها والظروف المحيطة بها منذ أن خرجت من ذاكرته، ولكنها تظلّ جديرة بالملاحظة وإعادة النظر على نحو استثنائي، ولو، على الأقل، لعمق السخرية التي بثّها سويفت فيها.

ومع ذلك فإن غورين لايستسلم لإغراء وضع شخصية سويفت على خشبة المسرح كي تنطق بالانتقادات الساخرة العنيفة. فعبر المسرحية كلها تقريباً يظل سويفت صامتاً. كل ماحوله محتدم أو متفجّر أو تافه، وثمة أشياء سخيفة ومنافية للعقل تحصل أمام ناظريه، لكنه لاينبث ببنت شفة. بيد أن المسرحية بكاملها تتنفس روح سويفت. فهي تُحيي وتبعث موضوعات وشخصيات من عمله الأعظم **رحلات جوليفر**، دون أن يعني ذلك أن الليليبتانيين والمردة وغيرهم الموجودين في مسرحية غورين حاضرون كما أبدعهم سويفت في

الأصل، وإنما هم هنا باعتبارهم شخصيات بخصائص جديدة مختلفة. ولِمَ لا، مادام الحدث يقع بعد كتابة سويفت لرائعته؟ لقد قال سويفت كل ماأراد قوله، أما الحياة فواصلت سيرها. وإذا لم تكن سخافات النوع البشري وجنونه وتفاهاته كلها قد استمرت، فإن الكثير منها مايزال موجوداً، وبالشكل ذاته تقريباً الذي سجلته فيه العبقرية الساخرة لدى سويفت.

و«البيت الذي شيّده سويفت» ليست موضوعية إن كان المقصود أنها تستمد مادتها وموضوعاتها من الأحداث التي تجري الآن. بيد أنها وثيقة الصلة بالحاضر الذي تمكّن غورين من أن يعكسه على الحياة وعلى المصير الإنساني بشكل عام. ورغم أن هذه قضية خطيرة من الصعب أن يتكلّم المرء عليها بالمجرّد، إلا أن سويفت أجاز لنفسه أن يفعل ذلك، فلماذا لايكون ممكناً لأبنائه الشباب وورثته أن يتبعوا خطوات هذا المعلّم العظيم؟.

لقد كان من الأسهل على غورين أن يسلك سبيل تكرار الدعابات والنكات والسخرية والتهكّم والهجاء مما خلّفه لنا سويفت. لكن غورين لديه ذكاؤه النفّاذ وفكره الشامل وفطنته المتوقدة، لديه سخريته الخاصة وهجاؤه المرير، لديه عقله الواسع الفسيح، ولديه حقاً مايقوله لنا.

مصادر المقدّمة:

١- دليل القارئ إلى الأدب العالمي، هيرلاندز/ بيرسي/ براون، ترجمة محمد الجورا، دار الحقائق، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦ .

٢- رحلات جوليفر، د. نور شريف، عالم الفكر. المجلد الثالث عشر، العدد الرابع، يناير- فبراير- مارس١٩٨٣ ، وزارة الإعلام في الكويت.

٣- جوناثان سويفت وصوت العقل المجنون، ترجمة وتعليق د. أميرة حسن نويرة، عالم الفكر، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، يوليوس- أغسطس- سبتمبر ١٩٨٤، وزارة الإعلام في الكويت.

٤- Soviet Theatre. 1/1987.

٥- Ashort History of English Literature, Ifor Evans, penguin Books.

الشخصيات

جونا ثان سويفت

ريتشارد سيمسون : الطبيب

أستيرجونسون : مدبّرة البيت، ممرضة .

ڤانيساڤا نومري : مدبّرة البيت، ممرضة .

باتريك : خادم .

قاضي القضاة

الوزير الأول

الأسقف

العالم

ليليبتاني أول

ليليبتاني ثان

الماردجلم

صمبدي

لابوتاني

الشرطي جنجر

الشرطي دارك

مواطنون، ممثلون، أعضاء مجلس الأوصياء، موسيقيون .

المكان : دبلن ، الزمان : ١٧٤٥ .

«استهلال»

دبلن. الساحة أمام كاتدرائية سانت باتريك. الناقوس يدقّ لحن الحداد. مجموعة من المواطنين واقفون مطرقي الرؤوس، وقد رفع الرجال قبعاتهم.

شاب بثياب السفر يطلّ برأسه من عربة. إنه الطبيب سيمسون.

الطبيب: مرحباً، ياسادة، ماالذي حدث؟ لمن يدقّ الناقوس بهذا الأسى؟ مَنْ مات؟

مواطن أول: سويفت.

الطبيب: من؟

مواطن ثان: الدكتور سويفت. عميد كاثدرائية سانت باتريك.

مواطن أول: (بحزن) نصيرنا. الصديق الطيب للفقراء والبؤساء والمعذّبين.

الطبيب: ياللأسف... متى مات؟

مواطن أول: اليوم، في الساعةالخامسة، كالعادة، ياسيدي.

الطبيب: (بدهشة) كالعادة؟ ماالذي تعنيه؟

مواطنة : آه، ياسيدي، لابدّ أنك غريب؟ ومن المؤكّد أنك لاتعرف عميدنا الطيّب. فهو صارم وحريص تماماً في عاداته، يحبّ النظام في كل أمر، مهما يكن. وسيرحل إلى العالم الآخر في الخامسة، وفي الخامسة على وجه الدقة.

الطبيب: هو حيّ إذن؟

مواطن أول: من؟

الطبيب: العميد.

مواطن ثان: وكيف يمكن أن يكون حيّاً؟ قلنا لك إنه مات.

مواطنة: كل الصحف تناقلت الأخبار، وناقوس الجنّاز ظلّ يدقّ ساعة أو أكثر . . .

مواطن أول: انظر، هاهو قادم بنفسه.

الطبيب: من؟

مواطن أول: سويفت. من الأفضل أن تسأله مباشرةً.

(سويفت يسير صامتاً. لابساً الغفّارة السوداء والياقة البيضاء التي يرتديها عضو الكنيسة الأنجليكانية)

الطبيب: عفواً، دكتور سويفت!

(يتوقف سويفت).

أنا الطبيب سيمسون. جئت من لندن لمساعدتك في التخلّص من اعتلال الدماغ . . وعلى حين غرّة أخبرني هؤلاء أنك ميت.

(يومىء سويفت برأسه صامتاً).

كم هو مضحك هذا! ولكن لو سمحت لي، ياسيدي، فإنّ الأمر كله ليس إلا وهماً أو هاجساً يمكن مداواته بلمح البصر، فقط لو خضعتَ للعلاج . . . هل تسمع ماأقول؟

(يسير سويفت مبتعداً دون أن يردّ)

أجبني، ياسيدي! كلمة واحدة وحسب! أرجوك!

(يخرج سويفت)

مواطن أول: (بابتسامة ساخرة) حسناً، أيها الطبيب، أنت توما الشكوك.

مواطنة: كل الصحف تناقلت الأخبار، ناقوس الجنّاز ظلّ يدق ساعة أو أكثر، . . وهاأنت الآن ترغب في التحدّث مع الراحل . . .

الطبيب : (بنفاذ صبر) انظروا، من أنتم من بين بني البشر؟

مواطن أول: من نحن؟!

مواطن ثانٍ: ضيوف الدكتور سويفت!

مواطنة: تكرّم علينا بالدعوة إلى بيته لنسهر على جثة عميدنا الجليل قبل دفنها.

الطبيب: (ساخراً) آه، هكذا إذن؟ لابد أنكم مجانين أيضاً؟

مواطنة: بالطبع، نحن كذلك، ياسيدي، ألستَ مجنوناً أنت؟

(يحدّقون في الطبيب بفضول)

الطبيب: (متراجعاً) ابتعدوا! (يقفز إلى العربة)

(تنطلق العربة. يلاحقها المواطنون بنظرات الدهشة)

مواطن أول: ياله من طبيب مضحك!

(يضحك الجميع. الناقوس يدقّ بصوت أعلى)

الفصـل الأول

١- «ضيوف منزل سويفت»

صوت تحطّم زجاج. حجر مقذوف من الشارع يسقط في إحدى حجرات المنزل الكبير الذي يسكنه سويفت. ثمّة نوافذ وأبواب عديدة. في الخلف درج يفضي إلى الدور العلوي. يدخل باتريك، الخادم، متوسط العمر وذو وجه جامد، ويبدأ بإزالة الزجاج المكسور. يتلو دخوله دخول ڤانيسا، الممرضة ومدبّرة المنزل. تتجه إلى مكتب وتُخْرِج مفكّرة.

ڤانيسا: (تكتب في المفكّرة) «الخامس من تشرين الأول، كُسِرَتْ نافذة في بيت جونا ثان سويفت».

باتريك: (مغتماً) إنها الرابعة خلال أسبوع واحد، لو سمحتِ.

ڤانيسا: (تكتب) «الرابعة خلال أسبوع واحد». الحقيقة أنّ العميد توقّع نجاحاً باهراً بعد موعظة الأحد الماضي... أما هذا الحجر فهو صغير جداً، ياباتريك.

باتريك: (ملتقطاً الحجر) اسمحي لي أن أخالفك، ياآنسة ڤانيسا، فهو كبير تماماً فيما أرى. . . (يطرح الحجر في صندوق).

ڤانيسا: هل لدينا ضيوف كثر في البيت؟

باتريك: كالعادة، ياآنسة ڤانيسا.

ڤانيسا: من هم؟

باتريك: لاأعرف الجميع. هناك جلم المارد. . . . بعض من أهل الجزيرة الطائرة. . . بعض الجياد. . .

ڤانيسا: (مصححةً) قلت لك هوينوهومز، ياباتريك.

باتريك: آسف جداً، ياآنسة، هوينوهومز. وهناك أيضاً. . . ذاك الذي يعيش إلى الأبد.

فانيسا: السيد ضمبدي؟

باتريك: أجل. والليليبتانيون، ياآنسة، إنهم مزعجون. فهم يعرقلون عملي وأخاف من أن أدوس عليهم.

ڤانيسا: أَرْسِلهم جميعاً إلى الحديقة. أريد للدكتور سويفت أنْ يحتسي شايه هنا بسلام.

باتريك: إنني أطلب منهم ذلك على الدوام، لكنهم لايسمعون. . . إنهم يحدّقون من النوافذ، يتلصّصون من الأبواب. وأولئك الليليبتانيون،

ياآنسة، مزعجون إلى حدّ أنهم قد يدخلون تحت قدميك. . . وأنت تعرفين، حتى الخدم لديهم أعصاب!

فانيسا: أعرف ذلك جيداً! خاصة حين أنقدك أجرك.

(تخرج فانيسا. باتريك يدير طاولة صغيرة، يشعل مصباحاً كحولياً ويُعدّ الشاي. شخص كئيب يظهر عند أحد الأبواب، مرتدياً زياً غَريباً، قبعة بولر انكليزية سوداء مستديرة، معطف فراك أسود حتى الركبتين، وشيئاً آخر يبدو هجيناً بين رداء إغريقي أو روماني طويل مشدود بحزام حول الخصر والتنورة، وينتعل في قدميه صندلاً إغريقياً. إنه السيد صمبدي».

صمبدي: عِمْتَ مساءً، ياباتريك.

باتريك: عِمت مساءً، ياسيد. نلتمس من الجميع النزول إلى الحديقة.

صمبدي: أم لعله الصباح الآن؟

باتريك: ذلك ممكن تماماً، ياسيد. نلتمس منك النزول إلى الحديقة.

صمبدي: حسناً، عمت صباحاً إذن!

باتريك: عمت صباحاً، ياسيد. (يحاول أن يقوده خارج الغرفة).

صمبدي: (مقاوماً) ولكن ماالتاريخ؟ ماهو التاريخ؟

باتريك: الخامس من تشرين الأول.

صمبدي: وماالعام؟

باتريك: ١٧٤٥.

صمبدي: قبل الميلاد أم بعده؟

(باتريك، وقد تحملّ فوق طاقته، يدفع صمبدي خارج أحد الأبواب. وماهي إلا لحظة حتى يعاود صمبدي الظهور من باب آخر. قرع شديد على باب ثالث. يفتح باتريك الباب فيواجهه زوج حذاء هائل. يردّ باتريك رأسه إلى الخلف كي يخاطب الشخص المحجوب الذي يرتدي هذا الحذاء).

باتريك: ياسيد جلم، لاتدخل الغرفة لو سمحت. خاصة بهذا الحذاء الوسخ. إمضِ إلى الحديقة. ماذا؟ ماذا؟ أنا لاأسمعك! انحنِ.... (مخاطباً صمبدي) آه لو يخبط رأسه بالجدار!... (ينظر إلى أعلى ثانية) كلا لانسيلوت لم يأتِ! (يصرخ) السيد لانسيلوت لم يأتِ! لم يأتِ... كلا! إنني أرفض أن أصعد ثلاث مجموعات من السلالم في كل مرة كي أردّ عليك!

صمبدي: لانسيلوت؟ هل قال لانسيلوت؟ كيف يمكن هذا؟ هل نحن في العصور الوسطى إذن؟

باتريك: (ملوحاً له بيده كي يبقى متنحياً) ذلك ممكن تماماً. (يحاول أن يغلق الباب لكن إحدى فردتي الحذاء الهائل تمنعه) كُنْ لطيفاً واسحب قدمك خارج الباب، ياسيد!

صمبدي: (مخاطباً باتريك) لاتغضب مني، أيها الخادم. إنني أحاول فقط أن أعرف في أيّ زمن أعيش. عندما يعيش شخص إلى الأبد، مثلي، فإن الزمن يتخثّر في دماغه، وتتكدّس السنون فوق بعضها البعض، لدرجة أنني في بعض الأحيان لاأعرف في أيةِ ألفيّةٍ من الأعوام أحيا. أين نحن الآن، ياباتريك؟

باتريك: (محاولاً كبح انفعاله) سيدي، أنا أُعدّ الشاي. وعليك ألاّ توجّه مثل هذه الأسئلة الحمقاء أبداً إلى شخص والماء المغليّ بين يديه.

صمبدي: ومن أكلّم إذن؟

باتريك: (يأخذ صمبدي من ذراعه ويقوده إلى النافذة) انظر

هناك - هل ترى شجرة البلّوط تلك. نعم، تلك الكبيرة الضخمة... سيكون جميلاً منك أن تجاذبها أطراف الحديث- هي أيضاً عمرها خمسمائة عام تقريباً.

صمبدي: خمسمائة عام فقط! أين هي مني إذن! إنني أتذكرها وهي جوزة.

(باتريك يُنزِل إبريق الشاي. تظهر وجوه المواطنين الضاحكة من النافذة).

باتريك: (كابحاً نفسه) كل ذلك بسببك، ياسيد. لقد ثقلت الشاي!

(يجذب صمبدي من ياقته ويدفعه خارج الغرفة)

(ولكن الباب يفتح ثانية ويدخل الطبيب سيمسون في ثياب السفر يحمل حقيبة كبيرة.

الطبيب: عِمْتَ ظهراً! أنا الطبيب.

باتريك: (يتقدّم منه بقبضتين مضمومتين) آسف، ياسيد، لقد نفذ صبري (يزعق) إلى الحديقة!!!

الطبيب: أنا الطبيب سيمسون.

باتريك: الجميع إلى الحديقة! وإن أمسكت بوغد آخر...

(ينتبه لما قاله) آه، أنا في غاية الأسف، ياسيدي. ماسمك قلت؟

الطبيب: سيمسون. الطبيب سيمسون. طبيب الأمراض العقلية.

باتريك: آه، أستميحك عذراً، أيها الطبيب! إنني مسرور جداً لرؤيتك. لقد أعلموني بأنك قادم.

الطبيب: ولهذا انقضضت عليّ؟

باتريك: أستميحك عذراً مرّة ثانية، ياسيدي. ولكن حتى الخدم لديهم أعصاب. إنّ هذه الأشياء التي تحصل هنا...

الطبيب: ماالذي يحصل هنا؟

باتريك: إنه منزل مجنون. حقاً إنه منزل مجنون!

الطبيب: (ينظر من النافذة) لستُ متأكداً تماماً من ذلك. لقد عملت في مؤسسات كهذه. مظهر منزلكم مختلف بعض الشيء. وهؤلاء الناس لايبدون مثل المجانين.

باتريك: (مبتهجاً) هذا ماأظنه أنا أيضاً! إنهم جماعة من المحتالين ياسيدي! محتالون وأدعياء!

الطبيب: ولماذا تفسحون لهم مجالاً إذن؟

باتريك: إنها أوامر العميد، مشيئته ووصيته الأخيرة. أنت تعلم، ياسيدي أنَّ سيدنا العزيز عندما مات أول مـرّة، أوصى بأن يكون منزله وأمـلاكـه كلهـا للمجانين. هل سمعت طوال عمرك بمثل هذا؟ وهل يمكنك أن تتخيل ماذا كانت النتيجة في إيرلندا؟ لقد حلّت عندنا حشود المتسولين. مردة، وهوينوهومز . . . وجزر طائرة. وأسوأ الجميع . . . أولئك الليليبتانيون.

الطبيب: (مهتماً) من؟

باتريك: الليليبتانيون، ياسيدي! ثمّة ليليبتانيون يسرحون ويمرحون في كل أرجاء المنزل. صار المكان حقلاً للألغام. إننا نخشى أن ندوس عليهم. والخدم لديهم أعصاب، كما تعلم.

الطبيب: اطمئن، أيها الخادم. سوف أعمل لإعادة النظام في هذا البيت.

باتريك: (ناظراً بحزن إلى الطبيب) كم عمرك، ياسيدي؟

الطبيب: ثلاثون. لِمَ تسأل؟

باتريك: إنه عمر الطبيب السابق. عندما غادرَنا، كان كمن في السبعين، رغم أنه لم يمكث معنا سوى أسبوع واحد فقط.

(الناقوس يدقّ. سويفت والممرضة فانيسا يظهران في خلفية الغرفة) هل أُخبرهم بمجيئك؟

الطبيب: لا. أودّ أن أراقب، أولاً.

باتريك: لكنهم طلبوا مني أن أخبرهم بوصول الطبيب حال قدومه.

(الطبيب يتقدّم من باتريك ويهمس في أذنه شيئاً ما)

(يطقطق باتريك بكعبيه بطريقة عسكرية) عظيم، ياسيدي! أنت الرجل الذي نحتاجه تماماً! (يرفع صينية الشاي ويحملها باتجاه سويفت وفانيسا) الشاي جاهز، ياسيدي!

(يختبئ الطبيب خلف خزانة الكتب. يجلس سويفت إلى المنضدة. باتريك يلفّ منديل المائدة حول عنق سويفت. وجه هذا الأخير يبقى ساكناً خالياً من أية تعابير).

ڤانيسا: (تنظر حولها) ألم يصل الطبيب بعد؟

باتريك: أجل، لقد وصل، ياآنسة ڤانيسا. (يلاحظ نظرتها المستهجنة) أردت أن أخبركم بقدومه، لكنه لم يدعني أفعل. قال إنه يرغب بإلقاء نظرة أولاً.

فانيسا: حقاً! ذلك ممتع . . . وكيف تجده، ياباتريك؟ ألا يبدو لك الطبيب الجديد أحمق بعض الشيء؟

باتريك: (مرتبكاً) ماكنت لأقول ذلك.

فانيسا: أحمق ومغرور. على الأقل هذا مايقوله كل من رآه. والعميد له الرأي ذاته. أليس كذلك، أيها الجليل؟

(يبقى سويفت جامداً دون تعابير).

أوافقكَ تماماً . . . و بما أنَّ ترشيحه لقيَ دعم مجلس الأوصياء والوزير الأول، فإننا لانستطيع أن نتوقّع منه الكثير. أليس كذلك، أيها الجليل؟

(يبقى سويفت لامبالياً).

ملاحظة صائبة تماماً، ياسيدي. صائبة تماماً. . . (تبتسم) وأنا أوافقك تماماً!

باتريك: (يرفع صوته متعمّداً) لو سمحت لي، أيها الجليل، فإنَّ الطبيب الجديد خلّف لديَّ انطباعاً حسناً. نظرة ثاقبة، وجه حادّ الملامح . . . وآمل أن يكون سمعه جيداً أيضاً.

فانيسا: (بصورة جافّة) سوف ننظر في رأيك، ياباتريك. دعنا الآن.

باتريك: حسناً، ياآنسة! (يسير بضع خطوات، ثم يتمهّل، وكأنما يخشى أن يطأ بقدميه شيئاً غير مرئي) هششش!! إنهم يسرحون ويمرحون في كل مكان، هؤلاء الأقزام. . . انتظر، لابأس! لن يطول بقاؤك هنا! (يخرج).

فانيسا: (لسويفت) إنْ لم يكن لديك اعتراض، ياسيدي، فسوف أقدّم لك تقريراً عن بريد اليوم ونحن نشرب الشاي. (ترفع طبقاً مليئاً بالرسائل والصحف) الحدث الرئيسي هو ردّ الفعل على موتك الأخير. كل الصحف تقرّ بأن مآتمك اتصفت بحماس منقطع النظير هذه السنة. فقد عمّت المظاهرات إيرلندا طولاً وعرضاً. كما حدث شغب في دبلن. السيد هورنري، عضو البرلمان، سأل في البرلمان، «حتّام سيُسْمَح للعميد سويفت بالسخرية من البريطانيين؟» حتى إنه عرض على التصويت مذكرة يحظّر عليك فيها الموت (تبتسم) لكن اقتراحه لم يتجاوز التلاوة الأولى. فقد صرّح أحد أعضاء المعارضة أن إنكلترا بلد ديمقراطي ومواطنيها، الذين لايعيشون في حرية كاملة على الرغم من ذلك، يجب أن

يكون بمقدورهم، على الأقل، أن يموتوا متى يشاؤون! (تبتسم) هذا تعليق من النوع الذي يحلو لك تماماً، ياسيدي، أليس كذلك؟ وهاهنا رسالة من فرنسا. أحد المعجبين بك بعث إليك برأي ڤولتير في أعمالك: «سويفت أعظم هجّاء في هذا القرن، ولكن الهجاء عنده ليس شكلاً فنياً خالصاً وإنما هو الضرورة المأساوية التي يفرضها الإقصاء الإيديولوجي من الحياة المعاصرة». مارأيك، ياسيدي؟ (يبقى سويفت لامبالياً).

(امرأة تقارب الأربعين من عمرها تظهر من النافذة وهي تحمل باقة من الزهور البريّة. إنها أستير جونسون. تحاول أستير ألاتثير الانتباه وهي تضع الزهور في المزهرية).

(تلتفت فانيسا إليها) آنسة جونسون، اذهبي إلى الحديقة لو سمحتِ.

أستير: (بتهذيب مفرط) عِمْتِ ظهراً، أيتها الممرضة. إنني مسرورة جداً لرؤيَتكِ.

فانيسا: وأنا كذلك، آنسة جونسون. اذهبي إلى الحديقة. سيوافيك العميد فيما بعد.

أستير: لقد أحضرتُ بعض الزهور.

فانيسا: هذا لطف زائد منك. ولكن لدينا في البيت مَا يكفي من الزهور.

أستير: هذه زهور بريّة. والعميد يحبها أكثر من كل الزهور.

فانيسا: (وقد بدأ صبرها ينفد) أنت تعطّلين العميد، ياآنسة جونسون.

أستير: لقد جلبتُ له حلوى للشاي. إنها الحلوى المفضّلة لديه- حلوى التفاح.

فانيسا: لايمسّ العميد حلوى التفاح أبداً. صدّقيني، فأنا أعرف عاداته كما تعرفينها. أرجوك، اذهبي إلى الحديقة!

(تحاول سحب الستائر)

(أستير تحاول منعها)

سوف تمزّقين الستائر، ياآنسة جونسون!

أستير: سأخيط لك ستائر جديدة، أيتها الممرضة. زرقاء فاتحة من قماش منقّط. ستائر رائعة.

فانيسا: لست معجبة بذوق الطبقة الدنيا الذي لديك،

ياآنسة جونسون. اذهبي إلى الحديقة وإلا استدعيت الخدم وسوف يسحبونك بالقوة إلى هناك! .

(يتجهّم سويفت وينهض فجأة عن المنضدة)

(تهرول إليه فانيسا مذعورة) ماالأمر، أيها العميد؟ اعذرني. لم تكن لديّ أية نيّة في إيذاء هذه المرأة. وأنت تعلم مشاعرنا الطيبة واحدتنا تجاه الأخرى. أخبريه، ياآنسة جونسون، أنَّ الأمر كذلك! انظري كم هو شاحب. فالاضطراب لايناسبه أبداً!

(تنسحب أستير حزينة. سويفت يحاول الاقتراب من النافذة)

(تسحب فانيسا الستائر بسرعة) لا، ياسيدي. دعها تمضِ. إنها ليست ستيلا. إنها، كما أوضحت لك، مجرد واحدة من زوّارك المجانين. ستيلا ماتت. ومنذ سنوات عديدة. أنت تعرف ذلك... وهذه المرأة لاتشبه ستيلا حتى. ثم ولو كانت تشبهها؟ لاأستطيع أبداً أن أفهم كيف تعجبك امرأة بهذا المظهر. إنَّ لك ذوقاً رفيعاً... (تلاحظ نظرة العميد الغاضبة) آه، اعذرني، ياسيدي! لستُ لبقةً! وبالكاد أدرك ماأقول...

(يسير سويفت صامتاً باتجاه أحد الأبواب)

(فانيسا تلحق به) اعذرني، ياسيدي. . . أنت لم تُنْه شايك . . . آه، مالذي فعلته. . .

(تخرج فانيسا وسويفت. يظهر الطبيب من مخبئه وينظر حوله بدهشة. يتفحّص المكتب واللوحات، ويسير عدة خطوات وفجأة يتعثّر في مشيته فيلهث خائفاً. يحدّق في الأرضية، ثم يجلس على ذراع الكرسي إلى طاولة الشاي. الضوء يخبو قليلاً. . . طرف الطاولة، حيث كان سويفت جالساً، يتضخّم بسرعة. شخص بالغ الصغر يظهر متسلّقاً غطاء الطاولة كي يبلغ أعلاها).

* * *

٢- الليليبتانيون

(طرف الطاولة. كوب شاي هائل الحجم يتصاعد منه البخار. قرب الكوب ثمّة صحن يحوي كعكة بالقشدة أُكِلَ نصفها وعليها شوكة. في صُحَيْفَةَ الشاي قطعتا سكر. على الطاولة مصباح ضخم مشتعل. في هذا الوقت تسلّق الليليبتاني الأول غطاء الطاولة وصار فوقها. ينظر حوله، ومن ثم يتجه إلى كوب الشاي ويقيس نفسه عليه. الكوب أطول منه بمرتين تقريباً. بعد ذلك يتجه إلى قطعتي السكر ويحاول جاهداً ولاهثاً رفع واحدة منهما، ولكنه يخفق. في هذه الأثناء، يتسلّق الليليبتاني الثاني غطاء الطاولة ويقف مراقباً الأول).

الثاني: تريد شيئاً حلو المذاق؟

الأول: (مُروَّعاً) من؟ أهذا أنت، ياريلب؟

الثاني: ومن تظنّ إذن؟

الأول: أنا أسأل؟ أهذا أنت، ياريلب؟

الثاني: سؤال غريب، يافليم. (يضحك متهكّماً) إنها

نكتة. مجموع مافي هذا البيت من ليليبتانيين هو اثنان، وعندما يلتقيان، يسأل واحدهما الآخر، «أهذا أنت؟» لماذا تسلّقت إلى هنا، يافليم؟

الأول: شعرت بالظمأ.

الثاني: حقاً؟ ومالذي تدسّه في حزامك؟

الأول: قارورة.

الثاني: وماالذي ستفعله بها؟

الأول: ولماذا تستجوبني بهذه الصورة؟

الثاني: لأنك كذّاب ولاتريد قول الحقيقة! لكن الحقيقة يجب أن تقال، وسأقولها أنا.

أنت يافيلم، لاتنوي شرب الشاي أبداً، وانما أردتَ أن تأخذ بعضاً منه إلى بيتي.

الأول: حسنٌ، وماذا لو فعلت؟ إنها مريضة. وهي تحتاج الشاي بالليمون.

الثاني: (بعنف) انظر هنا، يافليم، لاأحب سماع أحد يشير إلى زوجتي بـ«هي». ثم، زوجتي مريضة، أو زوجتي محمومة، أو تحتاج شاياً بالليمون! ذلك شغلي أنا.

مستوى الصدر، وليست كهذه القدور الضخمة القبيحة.

الأول: أردتُ أن أضع قطعة من السكر لأقف عليها.

الثاني: حسنٌ، ولماذا لم تفعل؟

الأول: إنها ثقيلة جداً. لاأستطيع رفعها وحدي.

الثاني: (بابتسامة لاذعة) من الأفضل أن أحاول إذن. (يتجه إلى قطعة السكر وبجهد جهيد يرفعها عن الصحيفة، يسير بضع خطوات متعثرة عبر الطاولة، ويصرخ فجأة): ساعدني! يافليم! ساعدني!

(يندفع الأول بسرعة لمساعدة الثاني ومع بعضهما يضعان قطعة السكر عند أسفل الكوب. وبصمت يعودان إلى القطعة الثانية).

الثاني: هذه أصغر قليلاً. أعتقد أن باستطاعتي تدبّرأمرها.

الأول: (باستكانة) حسنٌ، لقد أردت أن... (بصعوبة يرفعان القطعة الثانية، يحملانها إلى كوب الشاي ويضعانها فوق القطعة الأولى).

الأول: لكنك لم تكن هناك .

الثاني: عذر أقبح من ذنب . فالرجل الغريب يجب ألاّ يدخل غرفة امرأة حين يكون زوجها غائباً . هل هي التي نادت عليك؟

الأول: أجل .

الثاني: وكيف؟

الأول: كانت تئن .

الثاني: النداء والأنين أمران مختلفان ، يافليم! فأنت تنادي أحداً ما على وجه التحديد ، ولكنك تئن على العموم ، على العالم ككل . (ينتزع منه القارورة) وأنا أطلب منك ألاّ تدخل غرفتنا بعد الآن ، حين لايُنادى عليك بالذات .

(يتحول إلى الكوب ، ولكنه يتحقّق من أنه لايستطيع بلوغ حافته . ينظر حوله يائساً) .

الأول: إنه مرتفع جداً!

الثاني: كم أمقت هذا الخزف الساكسوني . أطقم الشاي اليابانية أفضل بكثير . أكوابٌ صغيرة جميلة على

الثاني: (معتلياً قطعتي السكر) آخ خ! لقد تعبت . . . دعنا نرتاح . ليأخذ الشيطان الإنكليز! لِمَ يستخدمون مثل هذه القطع الهائلة من السكر؟ إنّ واحدة منها لتكفي عشرات الناس العاديين . قطعة واحدة فقط . وكم من الأشياء اللذيذة يمكنك أن تصنع بها! توت بريّ مُحلّى ، مثلاً ، تقدّمه للفتيات .

الأول: ليسوا أهلاً لذلك .

الثاني: إنهم يفتّتون السكر ببساطة ، ليصنعوا هذه الكعكة البائسة ويغمروها بالقشدة ، ويلتهموها . أما حين يتعلّق الأمر بصنع حلوى رخيصة ، عادية ، لذيذة . . .

الأول: ليسوا أهلاً لها .

الثاني: صحيح أنك لاتستطيع إنكار التطور الكبير في البلد . . .

الأول: بالطبع . لاتستطيع .

الثاني: شوارع كلها ملساء مستوية . بيوت جميلة . عربات . .

الأول: بالطبع .

الثاني: وهم مندفعون قُدماً في رحاب العلم. ولكن ثمة كثير من الأشياء مازالت بعيدة عن متناولهم .

الأول: بالطبع ، هم كذلك .

الثاني: التوت البريّ المُحلّى ، مثلاً .

الأول: ليسوا أهلاً له . . .

الثاني: أو خذ مثالاً آخر . تذكّر معي؟ ماذا كنا نسميها هناك؟ ماذا كنا نسميها . . . أنت تعرف . أُفٍّ ، لقد نسيت . (يفكر) ولكن على العموم ، أنا أحبها جداً .

الأول: (متحسّراً) إنني أحبُّ هذا المكان!

الثاني: لاتكذب!

الأول: (بحزم) أحبُّ هذا المكان!

الثاني: هاأنت تكذب ثانيةً! (غاضباً) ماالذي تحبّه هنا؟! النوم على طرف الأريكة؟ أم سرقة الشاي من كوب سيدك؟

الأول: كُفَّ عن هذا!

الثاني: أم التطواف بين المنازل الهائلة والفزع يملأ قلبك من أن تُداس بحافر، أو قدم، أو حذاء؟

الأول: كُفَّ، أرجوك!

الثاني: هل تعلم كيف يدفنوننا هنا؟

الأول: كُفَّ عن هذا!

الثاني: في علبة ثقاب! الثلاثة معاً في علبة ثقاب واحدة!

الأول: (صارخاً) كُفَّ عن هذا قلت لك!!!

(يهجم على الثاني)

(شجار قصير)

الثاني: دعني. دعني، أقول لك! (يتخلّص منه) ولاتتجرأ على المجيء إلى غرفتنا مالم تُدْعَ بالذات! (يتسلّق السكر محاولاً الوصول إلى حافة الكوب ولكنه يخفق) ألايوجد أيّ شيء آخر للوقوف عليه؟

الأول: قطعة كعك وحسب.

الثاني: هراء! إنها دبقة جداً. (يهبط قفزاً إلى الطاولة) هيا بنا. سنحاول أن نغلي بعض الماء في الطابق السفلي. (ينظر غاضباً إلى كوب الشاي) قدرٌ

أجوف! أولاد زنى فاسدون! (يهزّ قبضته للكوب).

الأول: انتظر! جاءتني فكرة! لقد فكّرت كيف يمكننا أن نغرف بعض الشاي.

الثاني: حسنٌ؟

الأول: يجب أن يعتلي أحدنا كتفيّ الآخر.

الثاني: ألديك الكثير من هذه الأفكار النيّرة؟

الأول: بالطبع. الأمر بغاية البساطة. يتسلّق أحدنا إلى هنا وستكون أنت! ويتسلّق الآخر على كتفيه.

الثاني: هراء! ثم أنني لاأرغب في أن يعتلي أحد ظهري.

الأول: أما أنا فلا أمانع في أن أقف تحت.

الثاني: تريد أن تقتلني بسخائك، أليس كذلك؟

الأول: لا، لاأريد ذلك. ولكنها أفضل طريقة. أنا أطول منك، ولذلك فإن من الأفضل أن تكون...

الثاني: (مقاطعاً) ماذا؟

الأول: قلت أنا أطول منك، ولذا...

الثاني: من أطول؟ أنت؟

الأول: دعك من هذا، ياريلب. أَلَمْ نتجادل في ذلك بما يكفي؟

الثاني: لم أفهمك.

الأول: قلت، أَلَمْ نتجادل كفايةً. . . لقد اعتُبِرَ الأمر دوماً بمثابة البديهية. هل تذكر، في الجيش كنتُ القدوة اليمنى للاصطفاف أما أنت فكنت تقف بعيداً في آخر الصفّ. وفي أية حفلة راقصة كنتُ دوماً من بين أول الراقصين الذين يتمّ اختيارهم.

الثاني: هذا لايعني شيئاً. فذلك كان منذ زمن بعيد.

الأول: ماذا؟ لكن البشر لايزدادون طولاً بعد سنّ العشرين.

الثاني: أنا ازددتُ!

الأول: حسنٌ إذن. لِمَ نتجادل؟ دعنا نتقايس.

الثاني: لانستطيع أن نفعل ذلك وحدنا، لابد من وجود أحد ما كي يحكم بيننا. فلنمضِ إلى بتي.

الأول: ولِمَ نقحم بتي في ذلك؟ سنقف ظهراً لظهر وينتهي الأمر.

(يقترب الثاني من الأول كارهاً. يقفان ظهراً لظهر ويبدو الأول أطول).

حسنٌ أما قلت لك؟

الثاني: لايمكنني أن أستوعب هذا... ماالحذاء الذي تنتعله في قدميك؟

الأول: من ذات النوع الذي تنتعله.

الثاني: وماذا عن شعرك؟ إنه منفوش أما شعري فسائب مسترسل.

الأول: أوه، دعك من هذا، ياريلب! فعلنا ذلك عشرات المرات وأنت على الدوام تلتمس الأعذار.

الثاني: قل ماتشاء، سأقف من تحت.

الأول: لايجوز ذلك، ياريلب.

الثاني: سأقف من تحت لأنني أقوى.

الأول: حسنٌ، قف حيث تحب. ولكن لاتنسَ، سأدوس عليك.

الثاني: (ساخراً) ومالذي يمكن أن أتوقعه منك غير هذا؟ (يتسلّق السكر) أعطني تلك الشوكة.

الأول: (فزعاً) لماذا؟

الثاني: لأستند عليها، لماذا؟!

(الأول يعطي الشوكة للثاني)

(يتكئ الثاني على الشوكة) والآن، اصعد!

الأول: (بخوف) هل أنت واثق من أنك لن تسقطني، ياريلب؟

الثاني: لستُ واثقاً. سنرى.

الأول: لاتغضب، ياريلب. إنَّ وقوفك تحت لايقلّل من شأنك. بل على العكس! إنَّ ذلك يُظهر كم أنت نبيل. فأنت تعاني إكراماً لزوجتك المريضة. إكراماً لجميلتنا بتي. ذلك نبيل جداً! وبما أنك أخذت على عاتقك الوقوف تحت، فلابد أنك قوي. أقوى الجميع. في فرقة السيرك الأقوى يقف تحت دائماً...

الثاني: آه، دعك من هذا.

الأول: لست أطول منك، أنا أنحف. هل تذكر، لقد اعتادوا في المدرسة أن يسمّوني «النحيف».

الثاني: لقد اعتادوا في المدرسة أن يسمّوك «الدودة».

الأول: لقد عنوا بذلك أنني نحيف مثل الدودة.

الثاني: أوه، لا، لم يعنوا ذلك. لقد عنوا أن لاأحد يستطيع التمييز بين رأسك و.... (يضحك)

الأول: أخيراً! أخيراً استعدتَ حسّ الدعابة لديك. إنَّ حس الدعابة بالنسبة لنا هو الشيء الأساسي الذي جلبناه معنا من هناك، ياريلب. أليس كذلك؟ هؤلاء لايستطيعون أن يمزحوا مثلنا، هل يستطيعون؟

الثاني: ليسوا أهلاً لذلك.

الأول: (يضع يديه على كتفي الثاني) حسنٌ، هل أصعد؟

الثاني: (يحني ظهره) حظاً سعيداً في رحلتك!

(يتسلّق الأول كتفي الثاني ومن هناك يسحب جسمه إلى حافة الكوب).

الأول: أفّ، إنه ساخن! كما لو كنت في حمام... (يميل إلى الأمام) اللعنة.

الثاني: ماالأمر؟

الأول: الكوب فارغ حتى منتصفه. لاأستطيع أن أصل إلى الشاي. سأحاول بهذه الطريقة... (يأخذ

حزامه، يربطه إلى القارورة ويدلّيها إلى الكوب)
الآن أستطيع غرف بعض الشاي. (يحدّق في البعيد) يالهذا المنظر هناك، ياريلب!

الثاني: منظر! أيّ منظر؟

الأول: رائع! يمكنك أن ترى نضد المائدة من هنا، ياريلب. إنه مليء بالأقداح المزخرفة. وهاهي أشعة القمر تسقط عليها، فتتوهج بالألوان القزحية. . . جميلة جداً! كم أتألم لأنك لاتستطيع رؤيتها. . إنها جميلة إلى حدّ الجنون، ياريلب. مثل عروض الألعاب النارية. أَتَذْكُرُ تلك الألعاب النارية التي كنا نعرضها عشيّة السنة الجديدة؟ هل تودّ أن أساعدك لتصعد؟

الثاني: ألديك مزيد من هذه الأفكار النيّرة؟

الأول: حين تتعافى بتي. سوف نتسلّق نضد المائد نحن الثلاثة. فهي تحب الألعاب النارية. .

(فترة صمت. يجلس الأول صامتاً لبرهةٍ من الوقت، وهو يحدّق باتجاه نضد المائدة، بينما يسير الثاني ذهاباً وإياباً عند قاعدة الكوب).

الثاني: فليم، هل لي بسؤال؟

الأول: بالطبع.

الثاني: هل أنت مغرم بزوجتي؟

(فترة صمت) لِمَ لا تجيب؟

الأول: إنني أفكر ماذا أقول... إنْ قلت أحبها كثيراً، سوف أجرح مشاعرك... وإنْ قلت أحبها قليلاً سيكون في ذلك إهانة لبتي. لذا لن أجيبك عن سؤالك، ياريلب.

الثاني: حسنٌ إذن. سوف نضع السؤال بصيغة أخرى. هل تحب أن تنام مع زوجتي؟

الأول: لا.

الثاني: لِمَ لا؟

الأول: أنا أحترمك كثيراً، ياريلب.

الثاني: وهل هذا هو السبب الوحيد؟

الأول: كما أنني أحب بتي إلى حدّ كبير يمنعني من السماح بأن يُحكَى عليها هكذا. (بعد فترة صمت) أنا آسف.

الثاني: لا، أنت شخص قويم تماماً. . . وليس هناك مايضايقني. لقد أخبرتني الحقيقة والحقيقة لاتزعجني أبداً. عندما كذبتَ عليَّ منذ قليل بخصوص المجيء إلى هنا لشرب الشاي، كان ذلك شنيعاً. ولكنني لاأغضب لدى سماع الحقيقة أبداً. . .

(فترة صمت)

الأول: سوف أرحل عمّا قريب، ياريلب.

الثاني: وإلى أين تذهب؟

الأول: لم أحسم الأمر بعد. سوف أمضي إلى بلد آخر.

الثاني: لماذا؟

الأول: لابد من وضع حدّ لهذا. نحن لانفعل سوى جعل الحياة لاتطاق بالتساؤل كيف نحيا معاً. حان الوقت لفصم عرُا هذا المثلث الأحمق. سوف أترككم وأرحل.

الثاني: لكنك لن تقوى على الحياة وحدك.

الأول: سأجد لنفسي عملاً ما. فعلى الرغم من كل شيء، أنا عازف بيانو، ياريلب. عازف بيانو جيد.

الثاني: كُفَّ عن هذا الهراء. هل رأيت الآلات الموسيقية التي لديهم هنا؟ كل مفتاح مثل زِنْد الخشب. كيف تتوقع أن تعزف على مثل هذا البيانو؟!

الأول: بأقدامي، ياريلب! لقد فكّرت بكل ذلك. إذا ركضتُ من مفتاح إلى آخر بالسرعة الكافية، ستكون النتائج حسنة تماماً. كما أنّ لدى العميد بيانوقيثاري. وقد تمرّنت من جديد... لاتستطيع عزف شيء عظيم، بالطبع، ولكن الألحان الشعبية ليست سيئة كثيراً.

الثاني: دعك من هذا! أنت موسيقي عظيم، ولايمكنك أن تنزل إلى مستوى هراء السيرك بهذه الصورة.

الأول: هل من أحد هنا يعرف أنني موسيقي عظيم؟

الثاني: أنا أعرف. وبتي كذلك...

الأول: ولذلك سأرحل.

الثاني: كُفَّ عن التحدث بما لاتفهمه! إنه لمُخْزٍ أن تحجل من مفتاح إلى آخر، مثل البرغوث. أنت كائن بشري، ويجب أن تصون كرامتك الإنسانية. أنت صديقي، وتحب زوجتي. وفوق كل شيء، نحن أتينا من هناك. ثلاثة أشخاص أسوياء في

هذا البلد الجهنمي الهائل. يجب أن يُخْلِصَ كلٌ منا للآخر. لاترحل عنا، يافليم!

الأول: طبعاً، طبعاً، لايمكن أن أرحل، ياريلب. إنها مجرد. . . مجرد فكرة فانتازية.

الثاني: وتعال لترانا.

الأول: شكراً.

الثاني: متى تشاء. حتى لو لم تُدْعَ بالذات.

الأول: شكراً، ياريلب. أنت لطيف جداً.

(فترة صمت)

الثاني: (يلاحظ فجأةً حذاء الأول) ماالذي تنتعله؟

الأول: (محدّقاً في نضد المائدة) يالحركة الضوء الرائعة.

الثاني: لقد سألتك ماالذي تنتعله؟ (يشير إلى حذائه)

الأول: ماالأمر؟

الثاني: ماالذي وضعته في هذا الحذاء؟ في الداخل؟

الأول: (مرتبكاً قليلاً) لاأفهم ما الذي ترمي إليه.

الثاني: ابن زنى فاسد! حذاء! حذاء هائل من الفلّين! وكعبان زائفان؟ أنت وغد حقير!

الأول: بأيّ حقّ تهينني؟

الثاني: أنت أفعى غادرة! لقد وقفتُ بثقةٍ ظهراً لظهر، بينما هو . . .

الأول: لقد أعطيتك الفرصة لتكون فوق، ولكنك رفضت.

الثاني: منذ متى وهذا الحذاء الفلّين في حذائك؟

الأول: ليس شغلك.

الثاني: (مهتاجاً) إذن أنت تنتعله منذ مدة طويلة. أنت محتال! هكذا كنتَ تغشّ دوماً كلما تجادلنا. كنتَ غشاشاً في الجيش، عندما كنتَ القدوة اليمنى وأنا في المؤخرة. . . وفي حفلات الرقص عندما كنتَ أول من ينتقى لأنك الأطول. . . وأمام بتي!

الأول: لاتثُر هكذا.

الثاني: لستَ صديقي، يافليم! لقد خنتني. وخدعتَ زوجتي. لقد رأيتُ كيف تألقت عينا تلك المرأة الطاهرة حين نظرتْ إليك. . . كانت تقول لي، «انظر، ياريلب. صديقنا فليم يزداد طولاً يوماً بعد يوم. لابدّ أن ذلك بسبب تمارينه القاسية جداً». لو أنها عرفتْ فقط. . .

الأول: (يصرخ) إنها تعرف.

الثاني: ماذا؟

الأول: إنها تعرف! لأنها رأتني دون حذاء! دون أي شيء عليّ!

الثاني: (بهدوء) احفظ لسانك!

الأول: لماذا؟ إنها الحقيقة. والحقيقة تغضبك. إذن إسمع! أنا وبتي يحبّ واحدنا الآخر منذ زمن بعيد. وأنا أذهب إلى غرفتك لأنها تطلب مني ذلك، مني أنا بالذات!

الثاني: إخرس!

الأول: كنتُ على الدوام أطول منك، ياريلب! والمسألة ليست مسألة حذاء... بل مسألة أنني فوق وحسب! كما أنا الآن. لقد بلغتُ حافة الكوب وأتمتّع برؤية قوس قزح على نضد المائدة، بينما أنت، كالعادة، في المؤخرة متخلّفاً، أو متوارياً في الأسفل.

الثاني: سوف أقتلك، يافليم.

الأول: عندما تمسك بي أولاً! أيها القزم!

الثاني: ماذا؟

الأول: أجل، هكذا سميناك أنا وبتي.

الثاني: لماذا، سوف... (يمسك بالشوكة ويهجم على الكوب).

الأول: (واقفاً على حافة الكوب) لاتستطيع أن تطالني! لاتستطيع أن تطالني! (يركض على الحافة) ليليبتاني صغير بائس! (ينزلق فجأة) ريلب! النجدة، أنا أسقط... ريلب!... (يسقط في الكوب).

الثاني: فليم! ما الذي حدث؟ (يركض يائساً حول الكوب) فليم! أجبني! لاتتركني، يافليم! (يضرب بقبضتيه على جدار الكوب) النجدة! ساعدونا! النجدة!

(أحد ما يطفيء المصباح. الخشبة في ظلام تام. ومن ثم يعود الضوء تدريجياً. فانيسا وباتريك يقفان في المدخل. إنهما يريان سويفت، مطرقاً بصمت وحزن ينظر إلى كوب الشاي.... الطبيب جالس على بعد، ومن الواضح أنه عاجز عن فهم مايحدث).

فانيسا: أيها العميد. أودّ أن أقدم لك الطبيب سيمسون.

الطبيب: (مسروراً) لقد التقينا من قبل. قابلتُ العميد بينما كان خارجاً يتمشّى، لكنه لم يشأ أن يكلمني. ليس مهماً. . . سوف نكون أصدقاء، أليس كذلك، أيها العميد؟ كل الأعضاء في مجلس الأوصياء يأملون أننا سنكون على مايرام وأننا سنحقق شفاءً كاملاً بجهودنا المشتركة. هل تسمعني، ياسيدي؟ ماالأمر؟ الدموع تترقرق من عينيك. . .

باتريك: لابُّد أن الشاي بارد، وذلك ماأغضب العميد.

الطبيب: حقاً؟ هذه الترّهة. . . (يتجه إلى سويفت وينظر في الكوب) شيء ما سقط في الكوب. . . لابد أنها ذبابة، ياسيدي! ليس هذا بالشيء الذي يدعو إلى الغضب. (يحاول أن يأخذ الكوب، ولكن سويفت يمنعه) دعني. . أكره ألايطيعني مرضاي. دعني! (يأخذ الكوب بقوة من بين يديّ سويفت وينفض الذبابة بأصابعه بعيداً). كلُّ شيء حسن الآن. وسوف يكون عميدنا في مزاج طيب من جديد. أليس كذلك؟ (يعيد الكوب إلى سويفت).

(سويفت يتأمل الطبيب للحظة، ومن ثم يرفع الكوب عامداً ويرشق الشاي في وجهه).

٣- «القصة المرضية»

(اليوم التالي. الغرفة ذاتها في منزل سويفت. الطبيب يكمل فحص سويفت. فانيسا تساعده. الخادم باتريك يقف على بعد. يُمكِنُ رؤية ضيوف العميد يتمشّون في الخارج. مسرحيّ متجول يرتدي زيّ المهرج ويغني).

الطبيب: (بغضب) اسحب الستائر، ياباتريك. وقل لهذا المتشرّد أن يكفّ عن إنشاده التافه.

فانيسا: إنها لشكسبير، أيها الطبيب. من الملك لير.

الطبيب: لاأعرف شيئاً عن ذلك. نحن في عهد الملك جورج. لذا دعينا نواصل مابأيدينا. افعل ماقلته لك، ياباتريك!

باتريك: (بلهجة الرضا) حسنٌ، أيها الطبيب. (يخرج)

الطبيب: (واضعاً أذنه على صدر العميد) أجل... خذْ نفساً... جيد! يمكنك أن ترتدي ملابسك. (يمضي إلى المكتب حيث أوراقه. ويجلس)

(فانيسا تساعد العميد في ارتداء ملابسه)

والآن سنسجل القصة المرضيّة. ساعديني، أيتها الممرضة. ماأسمه الكامل؟

فانيسا: جوناثان سويفت.

الطبيب: (يكتب) بالـ «ف»؟

فانيسا: ماذا؟

الطبيب: قلت هل تُهجّى «سويفت» بالـ«ف»؟

فانيسا: (مرتبكة قليلاً) بالطبع، أيها الطبيب.

الطبيب: سنة الميلاد؟

فانيسا: ١٦٦٧.

الطبيب: المهنة؟

فانيسا: رجل دين. فيلسوف. كاتب.

الطبيب: (يكتب) «. . . كاتب» وهل يجد عميدنا متسعاً من الوقت للكتابة أيضاً؟ هذا مثير.

فانيسا: هل تمزح، ياسيدي؟

الطبيب: أنا لاأمزح أبداً، أيتها الممرضة. وخاصةً أثناء العمل.

فانيسا: ألم تقرأ أياً من كتب سويفت؟!

الطبيب: أنا لاأقرأ الأدب القصصي وماشابه. ليس لديَّ الوقت حتى للقراءة في ميدان تخصصي.

(يبقى سويفت لامبالياً)

فانيسا: ألم تسمع أبداً بكرّاساته؟

(يهزّ الطبيب كتفيه بلا مبالاة)

أو بكتابه المشهور **رحلات جوليڤر**؟

الطبيب: جوليڤر؟ لحظة... أظنُّ أنني سمعت به. عن رجل بالغ السمنة، يأكل بنهم...

فانيسا: (بجفاف) ذلك **غارغنتيا**، ياسيدي. لرابليه. جوليڤر مختلف تماماً.

الطبيب: (لامبالياً) إذن فأنا لاأذكر...

فانيسا: اعذرني، أيها الطبيب، لكنني لاأعتقد أن بإمكانك مساعدة العميد. علاجُ فنانٍ دون معرفةِ أعماله...!! سوف ألجأ إلى مجلس الأوصياء كي يرسلوا طبيباً آخر.

الطبيب: أنتِ حرّة في فعل ذلك، إنْ أردتِ، يافانيسا. ولكن أخشى أنَّ المجلس سوف يجد من الأسهل

استبدال الممرضة. (فجأةً) لحظة! تذكرت الآن... جوليفر - إنه كتاب للأطفال...

فانيسا: لقد كُتِبَ للكبار.

الطبيب: غريب... سمعتُ مربيّةً تقرؤه لبعض الأطفال الصغار... عن ذاك الطبيب، الذي يجد نفسه في أرض الليليبتانيين، ومن ثم في أرض المردة، وبعد ذلك في بعض الأماكن الأخرى...

فانيسا: (بغيظ) ليست مجرد بعض الأماكن- إنها لابوتا، بالنيباربي، لجناج، جلبدبريب. وأخيراً، بلاد الهوينوهمز.

الطبيب: ياإلهي، ماهذه الأسماء! ولماذا كلُّ هذا؟

فانيسا: (بأسلوب لاذع) إنه كتاب هام جداً، ياسيد. وأنا لن أجازف وأرويه بلغة مبتذلة، خاصة بحضور مؤلّفه. (تأخذ الكتاب عن الرف) من الأفضل أن تقرأه. (تضع الكتاب أمام الطبيب وتخرج برفقة سويفت).

(يفتح الطبيب الكتاب ويقلّب صفحاته، ومن ثم يطبقه بلامبالاة تظهر أستير جونسون عند النافذة).

أستير: أيها الطبيب، أرجوك، لاتغضب من فانيسا. سلوكها ليس حسناً، ولكنها تحبّ العميد.

الطبيب: وهل أنتِ مسرورة أم آسفة لذلك؟

أستير: هذه ليست مشكلة. إنها تساعد العميد في عمله. وهي تدير مراسلاته الضخمة.

الطبيب: من الغـــريب أنك أنتِ. . . نعم، أنتِ. . . تلتمسين مصلحتها!

أستير: أنا أعــذرها. على الرغم من كل شيء. . . فــهي مجنونة.

الطبيب: من؟ الممرضة فانيسا؟

أستير: أجل، ياسيدي. . . (تبتسم) انظر، منذ سنوات عديدة، عديدة مضت عَرَفَ العميدُ فتاةً تُدعى فانيسا. وأهدى إليها قصيدةً. وهكذا قررتْ فانيسا الممرضة أن تكون فانيسا القصيدة. (بحقد مفاجئ) يااللبائسة! كم هي حمقاء لتصدّق الشعْر. . . عندما كان العميد بصحته كان بمقدوره تمجيد حتى المقشّة من خلال شعره! لا، أيها الطبيب! لقد أحبَّ العميدُ امرأةً أخرى. طوال عمره! وكان يكتب لها الرسائل، كلّ يوم! أكثر من ألف رسالة محفوظة باقية.

الطبيب: آمل أن اسمها لم يكن مطابقاً لاسمك.

أستير: (تتظاهر بأنها لم تفهم سخريته) لقد أطلق عليها اسم ستيلا. وذلك الاسم هو من ابتكاره أيضاً. آه، كان عميدنا مبدعاً عظيماً.

الطبيب: (برِماً) ولكن من تزوّج، عميدك؟

أستير: لم يتزوج أبداً، أيها الطبيب. كان ثمّة امرأتان في حياته ولم يسمح لنفسه بجرح مشاعر أيٍّ منهما.

الطبيب: وهل توفيتا كلتاهما؟

أستير: أجل.

الطبيب: في الوقت ذاته؟

أستير: لِمَ تسأل هكذا؟

الطبيب: أقصد أنه كان بإمكانه الزواج من تلك التي بقيت حيّة.

أستير: (تنظر إلى الطبيب بانتباه) اعذرني، ياسيدي، ولكن هل أنت من نوتنغهامشير؟

الطبيب: أجل، لماذا؟

أستير: هذا ماخمّنته . . . اقرأ الكتاب، ياسيدي . . . ربما ستفهم عندها أن لهذا المنزل حكاية خاصة مع الموت. هنا يموت الجميع ومع ذلك لاأحد يموت . . .

(يظهر باتريك ويمشي بخطاً واسعة وينزق متجّهاً إلى النافذة كي يسحب الستائر).

باتريك: لاتعطلّي الطبيب، ياآنسة جونسون. اذهبي إلى الحديقة.

(تتراجع أستير عن النافذة وتنسحب)

(يتجه باتريك إلى نافذة أخرى ولكنه يتعثر ببعض العوائق اللامرئية. للطبيب): هؤلاء الليليبتانيون من جديد! هشش!

الطبيب: (يقترب من باتريك فجأة ويصرخ) كُفَّ عن لعب دور الأحمق! أيّ ليليبتانيين؟! من أين؟ أم أنك حلمت بهم في الكابوس؟

باتريك: وهل حلمت أنت بهم، ياسيدي؟

الطبيب: هذا ليس موضوعنا.

باتريك: اثنان منهم؟ قرب كوبٍ من الشاي، هه؟ أحدهم عازف بيانو، الآخر متزوج . . . الأول ذو حذاء الفليّن في حذائه كان أطول . . . أليس كذلك؟

الطبيب: (بعد تفكير قصير) لا. الذي لاينتعل حذاء فلّين كان أطول...

باتريك: (متهللاً) انظر أيّ كابوس رأيناه كلانا. في هذا المنزل الجميع يرون الأحلام ذاتها... وكلها صادرة عن العميد سويفت! إنه تأثيره الرهيب.

الطبيب: ولكنه لاينبس ببنت شفة.

باتريك: احترس، ياسيدي! هذا الرجل يلقي مواعظه صامتاً. حتى على المنبر. (ينظر حوله ويخفض صوته هامساً) في بعض الأحيان يتمشّى أمام رعاياه... ولاينطق إطلاقاً. وهم أيضاً لاينطقون... وهذا كل مافي الأمر! ولكن لسببٍ ما سرعان مايُظْهِر الإيرلنديون كراهيتهم للوزير الأول ويكتشفون أن فقرهم لايطاق.

(قرع شديد على الباب)

تفضّل... هانحن أمام مثال على تأثيره المشؤوم. هذا المارد المجنون سوف يطلب مرة أخرى مقابلة السيد لانسيلوت! (يفتح الباب)

(فردتا الحذاء الهائلتان على الباب)

ياسيد جلم، لقد طلبت منك ألا تأتي. ماذا؟ (يميل برأسه إلى الخلف) أنا لاأسمعك. . . أيّ فارس؟ وأين يمكن لي أن أجد لك فارساً؟

الطبيب: من هذا الرجل على طوّالتين؟

باتريك: على طوّالتين؟ (بدهشة حقيقية) هل تعتقد أنهما ليستا قدمين حقيقيتين؟ أيّ وغد هو إذن! سوف نختبرهما في الحال. . . (يرفس إحدى الفردتين) هيه أنت، ياسيد، هناك! انزل! (يرفس ثانية) من الأفضل أن أجرّب الماء المغلي!

الطبيب: توقف عن هذا، ياباتريك!

باتريك: لا، أيها الطبيب، أريد أن أعرف الحقيقة! حتى الخدم لديهم أعصاب. . .

الطبيب: سوف نعرف الحقيقة بطريقة أخرى. (يتجه إلى مجموعة الأسلحة المعلّقة على الجدار ويتناول الخوذة والسيف) اصعد الدرج، ياباتريك، وقل لهذا المارد أن السيد لانسيلوت قد وصل، هل تفهم؟ لقد وصل وهو جاهز للمبارزة.

باتريك: (مبتهجاً) بالطبع، ياسيدي! آه، أُحِسُّ أنك ستُغَربِل هذا المنزل! (يتناول بوقاً) هل تسمح لي بإطلاق إشارة التحدي؟

الطبيب: ليس ذلك ضرورياً.

باتريك: بل ضروري! يجب أن يتمّ كل شيء حسب أصول المبارزة الحقيقية!

(ينفخ في البوق مبتهجاً، ويخطو إلى الباب بطريقة عسكرية. لحظة أو اثنتين ويُسمَع صوته من مكان ماعالٍ جداً) أيها المارد جلم! الفارس الشجاع، السيد لانسيلوت، يقبل تحديك!

* * *

٤- «معركة مع المارد»

(يفتح الباب ويدخل إلى الغرفة رجل يميل إلى السمنة. قامته متوسطة وعيناه حزينتان. إنه جلم. باتريك يرافقه)

باتريك: أيها السيدان. اسمحا لي أن أقدّمكما. السيد جلم. المارد. (يشير إلى الطبيب) السيد لانسيلوت.

جلم: أيها الفارس المقدام، لقد أسعدني قبولك للتحدي! وأنا واثق من أن مبارزتنا سوف تجري حسب الأصول والقواعد المتّبعة، كما أنها ستكون حامية عنيدة.

الطبيب: (يلقي السيف جانباً) أنا لا أحبُّ النكات السمجة، ياسيد جلم. لقد أتيت إلى هنا لكي أقارع مارداً. ولستَ سوى رجل متوسط القامة. لايزيد طوله عن ستة أقدام...

جلم: خمسة أقدام وثمانية بوصات. ومع ذلك، ياسيدي، أنا مارد بالفعل. مارد حقيقي تماماً. أَعلَمُ أنَّ من الصعب تصديق هذا، ولكن الذي جرى هو أنني تضاءلت.

الطبيب: وكيف جرى ذلك؟

جلم: إنْ كنتَ ترغب، فسوف أخبرك.

الطبيب: أجل أرغب، ولكن أوجز.

جلم: (بحزن) حسن.

الطبيب: اجلس إلى الطاولة. (للخادم) وأنت ياباتريك، اسحب الستائر. لانريد أن يتفرّج علينا الآخرون.

(يسحب باتريك الستائر، بينما يُبدي المراقبون من النافذة استياءً واضحاً)

جلم: (مداهناً) هل أُثقِلُ لو طلبت قدحاً من الخمر؟

(ينظر باتريك إلى الطبيب متسائلاً. يشير الطبيب برأسه موافقاً. يذهب باتريك لجلب الخمر وهو يدمدم مكلِّماً نفسه)

الطبيب: (متملّياً جلم) هل تشرب منذ زمن طويل؟

جلم: أجل. ولكنني لست مدمناً، إنه دواء... المهم، دعني أبدأ من البداية... حسنٌ، ياسيد لانسيلوت، أنا مارد بالفعل. على الرغم من أن ذلك قد يبدو اليوم غير قابل للتصديق. والدي، جلم الكبير، كان مسألة أخرى. طوله مائتي

قـدم، أطول من كـاثدرائيـة دبلن. ولقـد بدا ذلك بمثابة التجديف فقرر الأسقف أنَّ على والدي أنْ ينحني وينثني بشكل مضـاعف. وظلّ هكذا بقيـة عـمـره، ياللبـائس، مـثل المصـاب بالقطان في فـقـراته. وطن والدي الأصلي هو بروبدنجناج. إنها بلاد المردة التي وصفها سويفت، لابدّ أنك قد قرأت عنها؟

الطبيب: أظن ذلك، أكمل.

جلم: وصل والدي إلى شواطئ بريطانيا بعد غرق سفينته. وكـانت حـيـاته هنا قـصـيـرة ومليـئة بالعناء. في البـداية مـثّلَ في السيـرك دور الوحش الغـريب. لكـن البــدعــة خبَتْ وتـخلّوا عن الوالد وتركـوه لنزوات القـدر... وازداد حنين والدي إلى وطنه والتمس السماح له بالعودة إلى بروبدنجناج، لكن أحـداً لـم يتـمكن من تأمين السـفـينة.... وهكذا راح يقوم بأعـمـال غـريبة- يحمل صـخور الجبال، ينظّف مداخن الأبنيـة العالية، كـمـا عمل في آخـر سنواته منارة في الميناء، يصـرف كل ليلة واقـفـاً على الرصيف، حاملاً مصباحه المضاء.

واسمعَ كيف مات، أثناء عاصفة رعدية شديدة.
إنّ البرق، ياسيدي، ينجذب إلى الأشياء الأطول... اللعنة، أين باتريك؟ كم من الوقت يحتاج إحضار قدح من الخمر؟

(يظهر باتريك ومعه صينية)

باتريك: لاحاجة للصراخ، ياسيد! لستَ في حانة! إنْ كنتَ قد جئت لخوض مبارزة، فاسلُك كما يسلك السادة.

جلم: آه، أجل، اعذرني! (يعبّ الخمر جرعةً واحدةً ويتابع حكايته) حسنٌ، كنت أحكي لك عن والدي. قبل موته بفترة قصيرة تزوج من امرأة انكليزية طويلة جداً. والمهم أن ثمرة هذا الزواج الغريب كانت أنا، جلم الصغير، نصف مارد ونصف إنكليزي، ومخلوق تعس جداً. وكان من سوء حظي أيضاً أن أبويَّ منحاني، فضلاً عن ضخامة الجسم، دماغاً هائلاً، جعلني أنمو بسرعة فظيعة. لقد بدأت بالنطق ولم يكن عمري سوى خمسة أيام، وبلغات عديدة. وتعلمت القراءة والكتابة والحساب وأنا في المهد. واستغرقتْ معي المدرسة

الثانوية ثلاثة أيام، أما الجامعة فشهر. وبعد سنة أصبحت مدرِّساً فذاً في الجامعة وموهوباً شأن أيّ عضو في الجمعية الملكية... في البداية امتلأ مواطنيّ إعجاباً بي، ولكن الأمر بدأ يثير سخطهم لاحقاً. فهذا الطفل الناضج عقلياً قبل الأوان جرح وقار الحكمة الجليلة. ورحتُ أقتحم أغوار العلم أعمق فأعمق، مكتشفاً قوانين وحقائق، وسرعان ماتلمستّ ضرورة وجود قوانين وحقائق جديدة... وكما تعلم فإنّ «من تزداد معرفته يزداد حزنه»... فضلاً عن أنني بدأت ارتفع مثل ساق الفاصولياء، قدماً بعد قدم فوق مواطنّي. وسرعان ماامتلكتُ إطلالة عين الطائر على بلدي. رأيتُ كم هي جميلة، وكم هي رائعة بهضابها وجبالها، ولكنني رأيت أيضاً أنها مهدَّمة، وغاباتها محترقة، وأنها قائمة دونما منطق أو تخطيط، ورأيت كيف يقتل الناس بعضهم بعضاً من أجل قطعة أرض. كل شيء في المارد مفرط، ياسيدي - البصر، والسمع، والضمير، وبالتالي فإنّ كل طلقة تردّدَ صداها في أذني، وكل ميّتةٍ مزّقت قلبي... ولذا قرّرت أن

أجعل بلدي بلداً سعيداً. وبدا لي أنني أعرف السبيل لإصلاح الجميع، وأنني أدرك معنى الوجود... فذهبت إلى الملك. لكنه رفض أن يستقبلني... سيدي، قُلْ لباتريك أن يحضر قدحاً آخر. لقد وصلنا إلى اللحظة الأشدّ حزناً.

باتريك: هذا داهية، ياسيدي!

الطبيب: أحضرِ قدحاً، ياباتريك.

(قرع على النوافذ)

باتريك: (يزيح الستارة مستهجناً) اهدأوا! اضبطوا أنفسكم! سوف يبدآن خلال لحظة! أقول لكم كونوا مهذبين. إنهما يستعدّان للمبارزة...
(يسحب الستارة ويمضي مدمدماً)

جلم: لم يستقبلني الملك! قال إنه لايستطيع الإصغاء لنصيحة شخص يخاطبه من عل. فقلت إنني مستعدّ لأن ألقي بنفسي على قدميه. لكن الملك قال إن النصيحة من تحت لاتهمّه أبداً. وأضاف إلى ذلك أن ثمة في بريطانيا فرساناً جسورين يتكفلّون بتلقين هذا المغرور درساً. وهكذا أعلن

الحرب عليّ! حوالي خمسة عشر فارساً حملوا على المارد. كان بمقدوري أن أذيقهم طعم الموت بضربة واحدة، ولكنهم أهلي. وأدركت أنّ على الرجل القوي أن يكون شهماً! كنت مستعداً للموت، لو كان ذلك يجعل بلدي في حال أفضل... ودخلتُ الصراع مع الفرسان!

(ينهض ويسير في الغرفة).

(الطبيب يتابعه بانتباه).

لم ألق من النجاح مقدار أونصة واحدة! فقد كان الفرسان مقاتلين عديمي النفع! أسقَطْتُهُم جيادهم، وسهامهم أخطأتْ هدفها، ولم تصل رماحهم حتى إلى سراويلي... وبعث إليّ الملك برسالة سرية: «توقّفْ عن جلب العار على بريطانيا! ارحل ولاتعد!» وكتبتُ في ردّي، «ياجلالة الملك، هذا بلدي! أريد أن أكون خادماً له، لاتبعدني عنه! وسأفعل كل ماتأمر به!» وردّ الملك، «كُفَّ إذن عن لعب دور الأحمق وكن مثل أيّ فرد آخر!».

(يدخل باتريك ويضع قدحاً آخر من الخمر أمام جلم).

باتريك: هذا هو القدح الأخير، ياسيد! فلاتطلب غيره أبداً. (ينكفئ جانباً ويصغي إلى المحادثة).

جلم: (بيأس) وهكذا بدأتُ أتضاءل! (يشرب الخمر) وكان هذا أسوأ أنواع العقاب. الكلّ يعلم صعوبة الصعود إلى القمة، ولكن النزول هو أسوأ بكثير. لاتسألني كيف تضاءلت. تمارين رياضية خاصة، حمية، التواءات وانحناءات شتّى... ولقد هبطتُ، وكأنما كنتُ أتبّع ممراً جبلياً شديد الانحدار، خطوةً، خطوةً، وفي كل يوم كنتُ أصبح أقرب إلى مستوى مواطنيّ... أما رأسي فكان أكبر مشكلة، ولكن الكحول أنقذَ الموقف. جرعة كبيرة من الكحول ثلاث مرات يومياً تطرد في الحال أية أفكار أو معرفة زائدة عن الحد. في السنة الأولى وجدتُ صعوبة في نسيان ماتعلمته كزميل في الجمعية الملكية. بعد ذلك هانَ الأمر. فخلال شهر نسيت ثقافتي الجامعية. وخلال أسبوع واحد تبخّرت المدرسة الثانوية. أما الفلسفة فكلفتني ثلاثة أيام كي تتبدّد، والتاريخ يوماً واحداً. وبعد ذلك... جاء دور تلك

التي. . . مـــاذا يســـمـــونهـــا الآن. . . آه،
ياعزيزي. . . مهما يكن اسمها فقد نسيتها دون أية مـــشكلة على الإطلاق، خـــلال ســـاعـــتين تقريباً. . . وبعبارة أخرى، فقد حولت نفسي تدريجـيـاً إلى سيـد عـادي ذي قـدرات عـادية. ومكثتُ هنا في دبلن، وبدأتُ أعمل في إحدى المؤسسات، وأكسب عيشاً معقولاً، ثم تزوجت، وبنيت لنفسي بيتاً صغيراً. . . بيت صغير رائع بحديقـة، ياسيدي. وعلى حين غرّة شرع ذاك العميد سويفت يدقّ النواقيس ويجمع المجانين من طول البلاد وعرضها. أنا وزوجتي ضحكنا في البـــداية، ومن ثم لعـــبتْ في رأسي فكرة استرداد براعتي الفائقة القديمة. فكّرتُ، ماقولكَ ياجلم. ألا تودّ أن تعود بين الغيوم؟ ليست هذه بالمجازفة الكبيرة. سوف أضحك، وأعبّ الهواء النقي المنعش. . . فَلْيُحْضِرِ أحد ما شراباً.

باتريك: (بعنف) أَلَم أَقُلْ؟ كلٌّ غايته هي أن يتسولَ شراباً بالمجان.

الطبيب: أحضر بعضاً من الخمر!

باتريك: ولكن، ياسيدي. . .

الطبيب: (متجهّماً) ولي أيضاً.

(يخرج باتريك مدمدماً)

جلم: لقد شيّدتُ هذا الحذاء بنفسي، فقد كان لديّ بعض المخيلة الباقية. وعندما اعتليته ووجدت نفسي أقرب إلى الغيوم، هل تعلم، ياسيد لانسيلوت، شيء مانَشِطَ هنا في الحال (يشير إلى جبهته) لم يَضِعْ كل شيء. لقد بدأت أتذكّر أشياء. . . جزءاً بعد جزء. . . جزءاً بعد جزء. . الهواء هناك في الأعالي نقيّ جداً. . . و بدأت الأفكار تعود إلى خاطري بسرعة. . ومرة أخرى، ياسيدي، أردتُ أن أفعل شيئاً مامن أجل بلادي. إنْ كنت لاأستطيع أن أكون مارداً مرّة أخرى في حياتي، فلماذا لاأكون مارداً في مماتي، ياسيدي؟ وهذا مادفعني لأن أبعث بالتحدي إلى لانسيلوت. . . وأنا ممتنّ لك جداً على استجابتك. لقد سمعتُ أنك فارس مقدام وجسور، ياسيدي، ولن ترفض لقائي في قتال فردي؟ ولسوف يجلب انتصارك المجد لبلادك!

(الطبيب يتأمل جلم بإمعان. جلم يستجيب بنظرة حزينة هادئة. يخفّ تحديق الطبيب).

الطبيب: هذا مستحيل، للأسف.

جلم: لماذا؟

الطبيب: لاأشعر بأية عداوة تجاهك. وفوق ذلك، أنا ضدّ المبارزة.

جلم: هذه ليست مبارزة، إنها نزال فرسان. والرابحان هما الشجاعة والرشاقة. وأنت ترى كم يتوق الشعب لمشاهدة قتال فردي. فهم متشوّقون لمشاهدة الرجال الشجعان. نريد أبطالاً. هيا الآن؟ كُنْ جَسوراً، ياسيد لانسيلوت.

الطبيب: أنا طبيب، الطبيب سيمسون.

جلم: (ساخطاً) أنا لاأحفل بالنكات السمجة! يمكنك أن تعتبر أنني مجنون وأنك طبيب، لكنني سأعتلي طوّالتيَّ وترتدي أنت خوذتك ويلتقي المارد مع لانسيلوت.

الطبيب: رافق السيد إلى الخارج، ياباتريك.

جلم: (مهتاجاً) آه، لا! إنْ لم تعد يدك قادرة على حمل السيف، فان يدي لن ترتجف. . . (يندفع باتجاه عدّة القتال، وقبل أن يتمكن الطبيب من منعه ينترع سيفاً) لن أدع روحك تتحمّل الإثم. ولن يكون لك سوى الثناء! (يفتح الباب ويصرخ) يعيش لانسيلوت المقدام! (يغمد السيف في صدره هو).

الطبيب: مالذي فعلناه، ياباتريك؟!

باتريك: اهدأ، أيها الطبيب، اهدأ. . . إنه حادث عرضيّ وقع من غير قصد.

* * *

٥- «كله تمثيل بتمثيل»

(الطبيب وقاضي القضاة، وهو سيّد بدين يرتدي ثياب القاضي وشعره المستعار، يهرولان على طول الرواق في منزل سويفت الفسيح . . يتبعهما شرطيان ضخمان (جنجرودازك) وهما يسحبان باتريك الخادم من قفا عنقه. يفتح القاضي باب المكتب. سويفت جالس إلى مكتبه وبقربه فانيسا)

الطبيب: عذراً لهذا التطفّل، أيها الجليل، ولكن لدينا رسالة مستعجلة لك.

فانيسا: ولِمَ هذا القاضي والشرطيان؟ هذا بيت خاص.

القاضي: (بجفاف) معذرةً، أيتها الممرضة. ولكن عندما يقتحم المجرمون منزلاً خاصاً فإنَّ القانون لابدَّ أن يلاحقهم عاجلاً أم آجلاً!

(يفتح القاضي النافذة ويرى الجميع ثُلّةً من رجال الشرطة يسوقون ضيوف العميد إلى عربة مغطاةٍ بالخيش تجرّها الأحصنة).

فانيسا: هذه قسوة! أيها الطبيب، كيف يمكنك أن تترك مرضاك في . . .

الطبيب: (مقاطعاً) هؤلاء ليسوا بمجانين، وإنما هم ممثلون، يامدام! مسرحيون جوّالون من النوع الرديء. وسوف يُعَاقبون على تمثيلهم وانتحالهم هذا.

القاضي: إنك ترى، أيها العميد العزيز، كيف أساء هؤلاء الأوغاد استعمال وصيتك الإنسانية. لقد قصدتَ التخفيف عن البؤساء فجاءت إليك عصبة من المحتالين. تعال الآن، ياباتريك! أخبر سيّدك كيف خدعته.

باتريك: (يسقط على ركبتيه) اصفح عني، ياسيدي! لم أفكّر أبداً أن هذا سيحصل... لم أقصد سوى الخير! اللوم يقع على وصيتك أنت. فعندما كتبتها، قلت لنفسي، ماالذي سيحدث في هذا المنزل، لو صار ملاذاً للمجاذيب؟ ونحن في النهاية مجرّد خدم، ولسنا ممرضات... ولدينا أعصاب! وفي تلك اللحظة بالذات قَدمَتْ هذه الثلّة من الممثلين الجوّالين إلى دبلن. وهكذا مضيتُ لمقابلتهم وقلتُ، «أيها السادة! لديّ لكم عمل طيب تماماً! يمكنكم الإقامة في مقرّ العميد، وسوف نقدّم لكم المأكل والمشرب. ومقابل ذلك عليكم أن تتظاهروا بالجنون التام...» آه، اصفح

عني ، ياسيدي! كلّ ماقصدته هو أن يمثلوا بعض الشخصيات الهزلية التي أبْدَعْتَها .

القاضي : (على نحو ميلودرامي) يالك من محتال ماكر!

باتريك : قدّرتُ أنَّ العميد لن يغضب . فلطالما أحبَّ هذا الضرب من المزاح . وفي البداية سار كل شيء على أكمل وجه . كان هزلاً حقيقياً . . واحدٌ تظاهر بأنه ليليبتاني ، وآخر مارد . . . وكل ذلك بروح طيبة! لكن الأوغاد تمادوا كثيراً بعد ذلك . وبدؤوا يتخلّصون من بعضهم بعضاً وحصلت إراقة دماء . . .

القاضي : لقد أثاروا المدينة كلها! هنالك شغب في الشوارع . إنها جائحة جنون شاملة!

باتريك : إنهم ممثّلون ، ياسيدي! ماالذي تتوقعه غير ذلك؟ والتمثيل فيه ارتجال . ثمّة شيء مامن هاملت في داخل كل ممثل .

فانيسا : إلى أين يأخذون هؤلاء الناس؟

القاضي : إلى السجن ، ياآنسة فانيسا . المكان المناسب لهذا النوع من الفن .

باتريك: ولكنني أدليتُ باعترافٍ صريح لالبس فيه . . .

فانيسا: لاتقلق، ياباتريك! مدبّرة المنزل هي المسؤولة عن كل مايحصل فيه. (للقاضي) يمكنك أن تعتقلني، ياسيدي!

القاضي: أنتِ مصروفة من الخدمة، ياآنسة ڤانسيا! لقد أقالكِ مجلس الأوصياء من جميع مهامكِ المتعلّقة بالعناية بالعميد سويفت! سلّمي، من فضلك، مفاتيح البيت للممرضة الجديدة. . .

(يفتح الباب وتظهر أستيرجونسون، مرتديةً لباس مدبّرة البيت الأسود).

أيها الطبيب، دعني أعرّفكما. الآنسة أستيرجونسون ستكون الآن مساعدتك.

أستير: لقد سبق أن تعارفنا أنا والطبيب. ولاشك أنه اعتبرني واحدةً من المجاذيب.

الطبيب: ممثلة مسرحية، بالأحرى.

فانيسا: أما أنا فلم تكن لديَّ أبداً أيّة أوهام بشأنكِ، ياآنسة جونسون. إنّ موهبتك أضعف بكثير من أن

تكوني ممثلة مسرحية، وصدقك أقلّ بكثير من أن تكوني مجذوبة. لكنني مسرورة لأن مجلس الأوصياء اختارك أنت. وآمل أن الوقت الذي صرفتِه تطوفين حول البيت وتتلصصين من النوافذ سوف ينفعك!

أستير: أنا آسفة جداً لأنني حللت محلكِ، أيتها الممرضة. . . ولكن المهم هو بقاء العميد في صحة جيدة وفي ظل رعاية حسنة، أليس كذلك؟

[illegible]

في ترتيب معين. وأنا على ثقة من أن شيئاً لن يضيع أو يُفْقَد؟

أستير: سوف أنظر في ذلك، ياآنسة.

فانيسا: لكنني سأريحك من هذه الأوراق (تأخذ لفيفة من الرسائل) إنها مراسلاتي الخاصة مع العميد. هل يمكنني أخذها؟

أستير: بالطبع، ياآنسة. فأنا أشك في أن يجد فيها كتّاب سيرة العميد ونقّاد أعماله أية أهمية.

فانيسا: ملاحظة صائبة تماماً، أيتها الممرضة. أرجو ألا تنزعجي لمناداتك هكذا؟ أجل، ياآنسة جونسون، أنت على حق تماماً. وسوف أحرق هذه القصاصات في الحال فهي لن تنفع أحداً (تتجه إلى الموقد).

(ينهض سويفت فجأة ويندفع صوب الموقد)

أستير: (تتبعه مسرعة) ماالأمر، أيها العميد؟ لِمَ تبكي؟ هذه ليست فانيسا! فانيسا تلك ماتت. . . أنت تعرف

ذلك . . . مـانفع هذه الرسـائل بالنسبـة إليك؟
حسنٌ، إنْ كـانت هذه الرسائل تهـمّك إلى هذه
الدرجة . . . (تمدُّ يدها إلى الموقد وتضعها فيه)
سأجـمعهـا كلهـا . سأعيد كل كلمـة . . ولكن
اهدأ .

(ينحني سـويفت فـوقهـا ، ويتناول يدها المحروقة المغطاة
بالسخام ويلثمها) آه، ياسيدي! هل تلك الفتاة
عزيزة عليك إلى الحدّ الذي يجعلك مستعداً
للصفح عني؟ أشكرك! هيـا الآن، يجب أن
ترتاح .

(يتّجهان إلى الباب . وعندما يصلان إليه تلتفت الآنسة
جونسون إلى القاضي) إنَّ سيدي العميد يلتمس
منك عدم نقل هؤلاء الناس اليوم . دعهم هنا يوماً
آخر فقط . . . فالمأتم لم ينته بعد .

(ينظر القاضي إلى الطبيب متسائلاً . يوميء الطبيب برأسه
علامة الموافقة) .

القاضي: حسنٌ! على مسؤوليتك، أيها الطبيب . ولكن
لامسرح، لاتمثيل . هل تسمع؟ فرّقوا الحشد؟

وخلّوا الممثلين في الحجر داخل العربة وتحت الحراسة! هل هذا واضح، أيها الشرطي؟

الشرطي جنجر: تماماً، ياسيدي!

(ينظر الطبيب من النافذة. ثمّة شرطيان يثبتان على العربة حاجزاً ضخماً من القضبان المتصالبة).

* * *

٦-«صمبدي»

(مساءً. الزاوية البعيدة من الحديقة. عربة الممثلين بالخيش الذي يغطيها. مؤخرة العربة مغلقة بحاجز حديدي عليه قفل ضخم. يمكن رؤية وجوه الممثلين بين الفينة والأخرى عبر القضبان. الشرطيان يحرسان العربة. على مقربة يقف سويفت صامتاً).

(الممثلون يغنّون بهدوء)

الشرطي دارك: كفّوا عن الغناء!

الشرطي جنجر: دعهم يغنّون... صوتهم ليس عالياً.

دارك: التمثيل ممنوع، فسوف يجذب الجمهور.

جنجر: معك حق! ولكن ياللخسارة. لقد رأيت بعضاً من تمثيلياتهم... وأحببت تلك التمثيلية الصغيرة عن الليليبتانيين.

دارك: عن ذاك الذي غرق في كوب الشاي! هاهاها! لابأس بها.

جنجر: وأحببت تمثيلية المارد أيضاً... لكن الذي أبهجني هو الرجل الذي يعيش إلى الأبد.

دارك: أيّ واحدكان هذا؟

جنجر: ذاك الذي نسي من يكون (يشـيـر إلى الحـاجـز الحديدي) هاهو. . . . إنه الذي يقول:

: «تلك البلوطة عمرها خمسمئة عام، ولكنني أذكرها وهي بعد جوزة. . .»، أنت! تعال إلى هنا.

دارك: الأفضل ألاّ نثيرهم.

جنجر: لن نثير أحداً. سوف نتسلّى وحسب.

صمبدي: هل ناديتماني، أيها السيدان؟

جنجر: ياللطريقـة التي تلبس بهـا، يارجل. . . منظرك مضحك. مااسمك؟

صمبدي: كما ترى، فقد عشت في هذا العالم طويلاً جداً بحيث نسيت اسمي. ولهذا سَمّنّي «صَمْبُدي».

جنجر: «صمبدي»؟ (يضحك) يالهؤلاء الممثلين. . . وكم تبلغ من العمر؟

صمبدي: آلافاً عديدة من السنين.

جنجر: يقول آلافاً عديدة. . . (يضحك).

صمبدي: (بحـزن) لاداعي للضـحك، أيهـا السـادة. كل

واحد منا يعيش آلافاً عديدة من السنين، أو أكثر. لكن معظمنا يعاني من قصور الذاكرة. (يمعن النظر في وجه الشرطي جنجر) لقد رأيتك في مكان ما من قبل، ياسيدي. منذ حوالي خمسين عاماً...

جنجر: خمسون؟ هاأنت تخطئ. إنَّ عمري لايتجاوز الخامسة والأربعينْ.

صمبدي: في هذه الحياة. هذه الحياة! ولكننا تقابلنا في التي قبلها. لقد تذكّرت الآن تماماً. كنتَ في الخدمة في ساحة السوق... قرب سجن البلدية.

دارك: هذا مكان خدمته الآن.

صمبدي: ربما. ولكننا تقابلنا في عهد الملك جورج الأول. (يمعن النظر إلى جنجر) أجل، وأنت.... لقد تذكّرتك... الشارب والنمش... وأنت نفسك سوف تتذكر لو بذلت قليلاً من الجهد.

جنجر: كيف؟

صمبدي: أغمض عينيك.

جنجر: حسنٌ... (يغمض عينيه)

صمبدي: تقول أنّ عمرك الآن خمسة وأربعون عاماً؟

جنجر: أجل.

صمبدي: والآن فقط حاول بهدوء، ودون عجلة، أن تستحضر حياتك الماضية. أنت الآن في الثلاثين. هل تذكر؟

جنجر: أجل، أذكر ذلك.

صمبدي: وعندما كنتَ في العشرين؟ فتياً، متين البنية، ووجنتاك موردّتان... هل تذكر؟

جنجر: أجل أذكر.. بالطبع، أذكر. ذلك عندما تزوجتُ بولي.

صمبدي: رائع. والآن أنت في العاشرة. هل تذكر؟

جنجر: حسنٌ، أشياء قليلة.. وقتها كنّا نعيش قرب غلاسكو، في الريف.

صمبدي: لاتستطرد، ولاتقطع تركيزك. نحن نقترب الآن من اللحظة الحاسمة. أنت الآن في الخامسة. هل تذكر؟

جنجر: (بعد تفكير) حسنٌ. أذكر بعض النُتَف فقط.

صمبدي: أنت الآن في الرابعة.... في الثالثة... في الثانية... في الأولى... أنت الآن في الرحم!

جنجر: أين؟!!

صمبدي: في رحم أمك! جنيناً مستلقياً هناك، ودم أمك يجري في داخلك. تذكّر! هيا! حاول أن تتذكّر. هاأنت الآن تعبر من هذه الحياة إلى الحياة السابقة . . . هيا اقفز! هاأنت، ببذّتك النظامية وخوذتك، واقف في ساحة السوق في دبلن، قرب سجن البلدية. تمرّ بك العربات، والحمام يطير فوق رأسك، وأنت واقف هناك تحدّق.

جنجر: (يفتح عينيه مرعوباً) آه، لقد تذكرت!

دارك: لقد تماديتما!

جنجر: قسماً لقد تذكرت! أنا واقف هناك، في ساحة السوق . . .

دارك: أنت تقف هناك على الدوام الآن!

جنجر: أجل، لكن هذا كان منذ زمن بعيد، يايسوع! (يرسم إشارة الصليب مذعوراً) ياعذراء . . . لقد تذكرت! لطالما أحسستُ بأنني قد عشت من قبل . . .

(يظهر الشرطي جنجر ثانيةً عند الحاجز الحديدي، دون أن يلاحظ وجود سويفت أو الطبيب).

جنجر: (يقرع القضبان) ياسيد صمبدي!

صمبدي: (يبدو من بين القضبان) ماالأمر، أيها الشرطي؟

جنجر: أرجو ألا أكون قد أيقظتك. ولكنني أودّ الغوص أعمق قليلاً...

صمبدي: بأي معنى؟

جنجر: متذكّراً حياتي السابقة. النقطة التي وصلنا إليها هي حيث كنتُ أقف في ساحة السوق، قرب السجن.

صمبدي: تعني في عهد الملك جورج؟

جنجر: أجل.

صمبدي: حاول أن تتذكر المزيد.

جنجر: (يغمض عينيه) بعد ذلك لابد أنني كنت في الثلاثين... ثم في العشرين... أتزوج من بولي.

صمبدي: هل تزوجت بولي في حياتك السابقة أيضاً؟

صمبدي: بالطبع، لقد عشت! الجميع عاشوا من قبل- ولاتحتاج إلا لأن تتعلّم كيف تستحضر ذلك. هذه هي الرسالة التي يكرز بها العميد سويفت!

دارك: (ملاحظاً قدوم الطبيب) هشش! اهدؤوا. (يمسك بذراع جنجر) تعال، ياجاك، وإلا لقينا المتاعب.

جنجر: (غير قادر على ضبط نفسه) كنتُ واقفاً في ساحة السوق! أجل! في ساحة السوق!

دارك: حسنٌ، ومالغريب في ذلك؟ (يقوده بعيداً)

(يتجه الطبيب إلى سويفت ويحاول متردداً أن يجرّه إلى الحديث)

الطبيب: سيدي، إنني أودّ بصورة أو بأخرى أن نبدأ في فهم واحدنا الآخر... لاأعرف كيف يمكن لذلك أن يتحقق، ولكن، صدّقني، أنا لايهمني سوى صحتك... (يبتسم) أنا لاأصدق أنك مجنون!

(يمعن سويفت النظر في عيني الطبيب)

سويفت: هُسْ!...

الطبيب: ماذا؟؟ قل لي، أيها العميد... أخبرني...

جنجر: (معتصراً ذاكرته) أجل، ولكن بولي تلك كانت أصغر قليلاً، فقط. وأقلُّ بدانةً. وهي أشبه بكاتي، الفتاة التي كان لي شأن معها عندماذهبتُ لزيارةبعض الأقرباء في مانشستر.

صمبدي: لاتستطرد، لاتقطع تركيزك. أنت الآن في العشرين ومتزوج من بولي، التي تشبه كاتي، ومن ثم أنت في العاشرة، ثم في الخامسة... الرابعة... الثالثة... الثانية... الأولى.. أنت في الرحم... إلى الوراء... إلى الوراء بعيداً! وهاأنت في حياتك قبل السابقة...

جنجر: لابد أن ذلك كان في عهد الملك إدوارد؟

صمبدي: أجل. هل تذكرتَ شيئاً؟

جنجر: إنني واقف قرب السجن، في ساحة السوق.

صمبدي: هل أنت واثق من أنك لاتخلط بين الأمور؟

جنجر: أجل، واثق تماماً. إنني في الخدمة، أحرس السجن.

صمبدي: (بحزن) أجل، كما خمّنتُ.

جنجر: ماالذي يعنيه كل هذا، ياسيدي؟

صمبدي: لاجدوى من تذكّر المزيد، ياجاك. أخشى أن المشهد سيكون ذاته دوماً. تتبدّل العهود وأنت واقف هناك في موقعك، في ساحة السوق.

جنجر: (مغتاظاً قليلاً) ولِمَ الأمر هكذا؟

صمبدي: من الواضح أن هذا هو قَدَرُكَ، ياجاك.

جنجر: لكنه قَدَر خائب كثيراً، ياسيدي.

صمبدي: وماالذي بيدك في ذلك؟

جنجر: قَدَر خائب كثيراً، ياسيدي... أعرف أنني لاأستطيع أن أكون في الماضي سيداً أو عميداً مهمّاً، مثل عميدنا سويفت. لكن... لماذا أُعَامَل هكذا؟ أُتْرَكُ واقفاً هناك ولاشيء يتغيّر أبداً...

صمبدي: اعذرني، ياجاك، ولكنها غلطتك.

جنجر: غلطتي؟

صمبدي: بالطبع. فما الذي فعلته كي تغيِّر أيّ شيء في قَدَرك؟ هل قمت بأيّ عمل حازم في حياتك كلها؟ لقد حرستَ السجن على الدوام. في عهد جورج. وفي عهد إدوارد. وفي عهد هنري.

جنجر: لكن السجن هو مكان المجرمين.

صمبدي: هذا يتوقف على الزاوية التي تنظر إليه منها، ياجاك. لقد اعتُبِرَ روبن هود مجرماً، لكنه في النهاية صار بطلاً. وجان دارك كانت مهرطقة، وبعد مئة سنة أصبحت قديسة. أنت وحدك، ياجاك، وقفت تحرس السجن ببلاهة قرناً بعد قرن، ولم تجشّم نفسك عناء التفكير أو الفهم! وماالذي تفعله الآن؟

جنجر: ماذا تقصد؟

صمبدي: مالذي تفعله هنا الآن؟ لماذا وضعوك هنا؟

جنجر: كي أحرس...

صمبدي: كما كنتَ منذ مئات السنين، إنْ أردت أن تستعيد في المستقبل ذكرى هذا اليوم، كيف سيكون حالك؟ لاشيء جديد. ستكون ثانيةً في حراسة أناس أبرياء وُضِعوا خلف القضبان.

جنجر: ولِمَ احتجزوكم؟

صمبدي: ولِمَ يحتجزون الناس في إيرلندا؟ لأيّ سبب. أنا هنا لأنني أعيش إلى الأبد. قل لي، ياجاك، هل هذه جريمة؟

(الشرطي جنجر يقضي برهة وهو يفكر عابساً)

الطبيب: (لسويفت) عذراً ياسيدي، سوف أتدخل... فهذا كلام خطير. صدّقني لستُ غراً في مجال الطب العقلي.

(«هُسْ!» يأتي الصوت من مكان ما خلفه. ينظر الطبيب حوله خائفاً ويرى مجموعة من المواطنين وأصابعهم على شفاههم: «هُسْ!». الشرطي جنجر يمضي إلى الحاجز الحديدي في مؤخرة العربة من جديد).

جنجر: ياسيد صمبدي.

صمبدي: أنا هنا، ياجاك.

جنجر: أخبرني، ياسيد صمبدي، منذ متى بدأ هذا؟

صمبدي: منذ متى بدأ ماذا؟

جنجر: منذ متى وأنا أحرس السجن؟

صمبدي: هذا مالا أعلمه، ياجاك. تذكّر أنت.

جنجر: ولكنك تقول إنك عشت آلافاً عديدة من السنين.

صمبدي: أجل. ولكن هذا لايعني أننا كنا نتقابل في كل ذلك الوقت. ماهي الفترة التي تشغل بالك؟ العصور الوسطى؟ الغزو النورماندي؟

جنجر: السنة ٣٣.

صمبدي: ماذا؟

جنجر: السنة الثالثة والثلاثون بعد ميلاد المسيح. سنة الصلب! (يخفض صوته ويهمس) أنا رجل أخشى الله، ياسيدي. قد أغفر لنفسي كل شيء ماعدا ذلك. حاول أن تتذكر. السنة ٣٣. أورشليم... السجن... الحرّاس يُحْضِرون يسوع من السجن...

صمبدي: ليحفظك الربّ، ياجاك، أنا لاأتذكرّ ذلك!

جنجر: لكنّ الآخرين يتذكرون. سقف كاتدرائيتنا مزيّن بالرسوم. وثمّة لوحة... له وهو يقاد مكبّلاً... محاطاً بالحرّاس وبالناس... وإلى اليمين هنالك حارس. شارب جنجر، نمشه، أذناه البارزتان. (يصرّ بأسنانه)

صمبدي: تمالك نفسك، ياجاك! لستَ أنت!

جنجر: ومن هو إذن؟

صمبدي: أنا أطمئنك. إنّه واحد آخر.

جنجر: لماذا إذن تذكّرتُ كلّ ماجرى؟ استرجعتُ كلّ شيء، وكأنه حدث البارحة. تذكرتُ كيف اقتادوه إلى الخارج، وكيف صرخ الحشد. كيف جرّده الجنود من الملابس، وألبسوه رداءً قرمزياً. وعندما ضفروا إكليل الشوك، وضعوه حول رأسه، ووضعوا قصبة في يمينه، وكانوا يجثون قدّامه ويستهزئون به، قائلين، السلام... وأنا كنتُ واقفاً هناك إلى اليمين. كنتُ مسلّحاً، لكنني بقيت أتفرّج، ولم أحرك ساكناً لأنقذ الرجل البريء.

صمبدي: أنت مخطئ، ياجاك.

جنجر: لا، لست مخطئاً، ياسيدي! لقد تيقنتُ الآن أنّ ذلك كان أنا. وأنّ قدري قد بدأ منذ ذلك الحين! وكان من الممكن أن يتكرر حدوث ذلك مئات المرات، ياسيدي، لو لم تعلّمني كيف أتذكر.

لكنني سأضع الآن حداً لكل ذلك. . . (يفتش في حزامه، يخرج مفتاحاً ويشرع بفتح قفل الحاجز الحديدي).

الطبيب: (خارجاً من مكمنه) مالذي تفعله أيها الرقيب؟

جنجر: (يشهر مسدسه ويهدد الطبيب) لاتقترب أدنى اقتراب! إنني، أنا الرقيب جاك، أعتبر هؤلاء الناس أبرياء وأمنحهم حريتهم.

(يأتي الشرطي دارك راكضاً).

دارك: جاك، مالذي تفعله. هل جننت؟

جنجر: (يصوّب المسدس باتجاهه) تراجع! إنني، أنا الرقيب جاك، أُطلقُ سراح هؤلاء الناس. . .

دارك: ومااللذي سأقوله للقاضي؟

الطبيب: أيها الشرطي! سوف تُعاقب على هذا عقاباً شديداً!

دارك: سوف يحيلونك إلى محكمة عسكرية، ياجاك. فكّر بالأمر!

جنجر: فكّر أنت بنفسك! تذكّر! اذهب إلى الكاثدرائية، وانظر إلى اللوحة، انظر إنْ لم تكن صورتك بين الجنود؟

دارك: أيّ جنود؟ لقد فقد صوابه!

جنجر: (للممثلين) هاأنا أُطلِقُ سراحكم (يضع المفتاح في القفل ويديره).

دارك: توقف! (يُشْهر مسدسه ويطلق النار على جنجر) سامحني، ياجاك! ولكنه واجبي! وأنا أقوم بواجبي! (يصرخ) النجدة! (يخرج راكضاً)

(الشرطي جنجر يترنّح ويسقط بين ذراعي الطبيب. صمبدي يخطو خارج العربة وينحني فوق الشرطي).

جنجر: حسنٌ، قُضي الأمر، ياسيدي... انظر كم هو بسيط... سوف أعيش حياةً مختلفة من الآن فصاعداً، أليس كذلك؟

صمبدي: بالطبع، ياجاك. كل شيء سيختلف. سوف تبدأ صفحة جديدة، جديدة تماماً.

جنجر: (وهو يموت) لا، ياسيدي... لاحاجة لأن تكون جديدة كلياً... لتكن بولي فيها ثانيةً... وكاتي...

صمبدي: أجل؟ لتكونا هناك.

جنجر: لكن لتكن النهاية مختلفة في المرة التالية.

صمبدي: نهاية مختلفة، بالطبع، ياجاك. سوف يكون ضميرك مرتاحاً على الدوام. وسوف ترى السماء زرقاء كما هي الآن...

(الطبيب يضع جنجر على الأرض بحذر. يخرج الممثلون من العربة ويقفون حولهما صامتين على شكل حلقة. فجأة ينطلق التصفيق. يرفع الطبيب بصره خائفاً- المواطنون المجانين يصفقون).

الطبيب: (مخاطباً سويفت، وصارخاً) ولكن هذا دمّ!!! قل لهم! إنه دّم... (ينظر العميد إليه صامتاً. تزداد حدّة التصفيق).

* * *

الفصل الثاني

٧- «مجلس الأوصياء»

(قاعة ضخمة يجتمع فيها مجلس الأوصياء. لفيف من السادة على رؤوسهم شعر مستعار يقفون إلى النوافذ المفتوحة ويمسحون السماء بمناظيرهم. بينهم الطبيب. يمكن سماع بعض التعليقات):

«هو ذاك».

«أين؟ لا أرى شيئاً البتة».

«هناك فوق... شيء مدّور... مثل صُحَيفة الفنجان».

«إنه مُذَنَّب، أيها السادة! مذنّب صغير».

«أنا أقول إنّه علامة من عند الرب!»

«لعلّه سحابة؟»

(يفتح الباب ويدخل الحاجب ليبلغهم بقدوم: «وزير إيرلندا الأول. السيد روبرت وولبول»).

(يدخل الوزير الأول وقد بدا عليه القلق ومعه قاضي القضاة)

(يسارع الجميع إلى الجلوس حول الطاولة)

القاضي: أيها السادة! سوف نعقد الآن اجتماعاً طارئاً لمجلس الأوصياء، الذي استدعيته بناءً على أوامر الوزير الأول.

(تتحول كل العيون إلى الوزير الأول، الذي لايزال وجهه كالحاً)

لقد كلّفني الوزير الأول بإعلامكم أنه شديد الاهتمام بصحة محبوبنا العزيز العميد سويفت وبالحالة العامة للبلد. وهل ثمّة حاجة للقول كم كان اضطرابنا شديداً، نحن الجميع، بسبب الضعف العقلي لمعاصرنا العظيم؟ ولكن ماالذي يمكن فعله إنْ لم يكن الطب قد حقق الكمال بعد؟ وعلى أية حال، إنه ليسعدني أن أبلغكم أن الطبيب الجديد- الدكتور سيمسون- قد بثّ فينا الأمل. فهذا الطبيب الشاب لم يقضِ في منزل العميد سوى أيام قليلة، ولكنه قام خلالها بالكثير: فقد تم اعتقال الممثلين، والممرضة فانيسا صُرِفَتْ من الخدمة، وافتُضِحَ أمر الخادم، هذا المحتال الراسخ في الاحتيال. . .

أحد أعضاء المجلس: عظيم!

الطبيب: (مضطرباً) أنا آسف ولكنني لاأفهم . . .

القاضي: (مقاطعاً) لاحاجة للتواضع، أيها الطبيب. النجاح هو النجاح. على الرغم من أن بعض الحوادث التي جرت بعد ذلك كانت مزعجة بعض الشيء: فقد فرَّ الممثلون جميعاً، وقُتِل شرطي، والخادم المحتال طلب التوبة وعاد إلى موقعه السابق.

عضو مجلس أول: والبارحة غرقت سفينتان أخريان في ميناء دبلن.

عضو مجلس ثان: بحمولتيهما؟

عضو مجلس أول: بالطبع. كانتا محمّلتين بالثياب. ثياب انكليزية رائعة.

الأسقف: ولاتنسوا القلاقل في كوفنتري.

القاضي: أجل، حقاً . . . القلاقل في كوفنتري . . . والشغب في غلاسكو . . . وأخيراً، هذا . . . (يشير إلى النافذة) هذا الشيء الطائر الغامض، الذي ظهر في سماوات ايرلندا، ناشراً الذعر بين العامّة.

العالم: إنه مذنَّب، أيها السادة، مذنَب نموذجي أبتردون ذيل!

القاضي: أأنت واثق من ذلك؟

العالم: بالطبع. إنَّ لدينا براهين لايمكن دحضها.

الأسقف: بل هو علامة من عند الربّ. بشير بيوم الدينونة.

العالم: إنه مذنَّب أبتر! صدّقني، ياسيدي الأسقف.

الأسقف: دعِ السموات للكنيسة، ياولدي!

العالم: لا، ياسيدي، مع الاحترام! فالسموات جزء من النظام الكوني وهذا أمر يخصّ العلم!

الوزير الأول: (بهدوء، ولكن بحيث يسمعه الجميع) السماء فوق إيرلندا هي جزء من إيرلندا. وهذا أمر يخصّ انكلترا.

القاضي: لاريب في ذلك، ياسيدي، لاريب! (للجميع) ولهذا بالضبط سألنا لندن عن طبيعة هذه الظاهرة الملحوظة.

أحد أعضاء المجلس: وماذا كان ردّهم؟

العالم: مُذنَّب أبتر، أنا متأكد من ذلك؟

القاضي: فقط لو . . .

الأسقف: يوم الدينونة؟

القاضي: أسوأ. لقد كتبوا: «قرِّروا بأنفسكم!»

(فترة صمت)

ماهي آراؤكم حول الموضوع، أيها السادة؟

(صمت)

إذن، سيكون الرأي العام أن هذا الجسم الغريب غير موجود.

عضو مجلس أول: شبح؟ حلم؟ طيف؟

القاضي: هذا ماعلينا أن نقرره. إنَّ لدينا حرية اختيار كاملة في هذا المجال.

العالم: أنا أقترح مصطلح «هلوسة». هلوسة نموذجية، أيها السادة! وهي مدعَّمة بوقائع لاتقبل الجدل.

عضو مجلس أول: صحيح تماماً. عندما تنتشر القلاقل على الأرض، تظهر لنا هذه الأشياء الـ . . .

الطبيب: (ناظراً حوله بدهشة) عذراً، أيها السادة، لكنني لاأفهم بالضبط . . .

القاضي: (بشيء من الغضب) ماكلُّ هذا؟ فأنت لستَ من أهالي نوتنغها مشاير؟

الطبيب: بلا، أنا منهم. وماذا في ذلك؟

القاضي: آه، لا شيء. ظننتُ أنك . . .

(يبتسم الجميع وينظرون بتعالٍ إلى الطبيب)

هل قرأت الجزء الثالث من **رحلات جوليڤر**؟

الطبيب: لقد بدأت به. ولكنه مملّ جداً.

القاضي: مملّ؟ حقاً، هل تعلم. . . (يُخْرِجُ الكتاب) فقط اقرأ هذه الصفحة. الصفحة ٢٧١. (يعطي الكتاب للطبيب) اقرأها بصوت مرتفع، من فضلك!

الطبيب: (يقرأ) «. . . كانت الشمس حادّة جداً، حتى إنني اضطررت لأن أشيح عنها بوجهي: وفجأة عمَّ الظلام كل شيء، كما خمنتُ، بطريقة تختلف تماماً عما يحدث عند توضّع الغيوم. تراجعتُ، ورأيتُ جسماً معتماً ضخماً يحجب الشمس عني. . . وسوف يصعب على القارئ أن يتصوّر ذهولي وأنا أشاهد جزيرة في الهواء. . .»

الوزير الأول: (بهدوء ولكن بحيث يسمعه الجميع) «جزيرة في الهواء». . . جميل!

القاضي: دون ريب، ياسيدي! إنّ أسلوبه لايضاهى. تابع القراءة، أيها الطبيب.

الطبيب: «. . . والجزيرة الطائرة أو العائمة دائرية الشكل تماماً، وقطرها٧٨٣٧ ياردة أو حوالي ٤ أميال ونصف. . .»

العالم: (ناظراً من النافذة بمنظاره) كالعادة؛ إنه دقيق تماماً. إنّ للـ«هلوسة» هذه الأبعاد بالضبط.

الطبيب: لقد فهمت تماماً، أيها السادة!

العالم: (ساخراً) أخيراً. . . تهانينا.

القاضي: (للعالم) وفّر تهانيك. يجب أولاً أن نرى ما الذي فهمه. فهومن نوتنغها مشاير، في النهاية.

الطبيب: هل تريد أن تعزو ذلك (يشير إلى النافذة) إلى سويفت؟

القاضي: ماالذي تعنيه بـ«تعزو»، أيها الطبيب؟ انتقِ تعابيرك. لقد كَتَبَ كل هذا منذ زمن بعيد. ولابد أنك تدرك أن مثل هذا الوصف التفصيلي والفني البارع يمكنه أن يثير هلوسة حادة في الأمة برمتها.

العالم: جائحة جنون! عندما يجنّ واحد من عامّة القوم، فإنّ ذلك لايترك أثراً. ولكن عندما ينفجر عقل عظيم مثل عقل سويفت، فإنّ الأفكار والخيالات تتطاير في كل اتجاه.

الطبيب: لكن العميد سويفت ليس مجنوناً. هذا هو رأيي القاطع، كطبيب!

عضو مجلس أول: لاتكن متعجّلاً، ياصديقي العزيز، لاتكن متعجّلاً.

الطبيب: (مصراً) العميد سويفت ذو عقل سليم تماماً! ولقد أعلمتُ لندن بهذه الحقيقة.

(اضطراب عام)

القاضي: (بجفاف) ومتى أعلمتهم؟ ومن؟

الطبيب: منذ بضعة أيام بعثتُ برسالة . . .

القاضي: (للوزير الأول) لم نعد قادرين على إيقافها. لمن الرسالة؟ لمن كتبتها، أيها السيد؟

الطبيب: لعضو في البرلمان طلب مني أن أزوّده بالأخبار.

القاضي: وهكذا سيصبح كل ذلك معروفاً لدى البرلمان والصحافة.

الأسقف: ياللأحمق! ياللأحمق الكبير!

الوزير الأول: (ينهض ويتجه نحو الطبيب) ولكن كيف أمكن لهذا الشخص أن يأتي إلى هنا؟

(صمت شامل)

إنني أسأل كيف أتى هذا الشخص إلى هنا؟ ومن الذي كلّفه بذلك؟

(فترة صمت)

القاضي: (بهدوء) أنت، ياسيدي!

الوزير الأول: (بعنف) أعرف ذلك! ولكن من الذي قام بتزكيته؟

القاضي: لقد بدا ترشيحه مستوفياً للعديد من المؤهلات: حداثة السن، الغباء، انعدام الثقافة... ولم يَبْدُ عليه أنه سيقع تحت تأثير العميد.

الوزير الأول: ومن هو، بالتحديد، الذي صادق على تعيينه؟

القاضي: (متردداً) سويفت! لسببٍ ما اختاره هو من بين كل الأطباء الذين عُرِضوا عليه.

(الوزير الأول يلقي على الطبيب نظرة شاملة، ومن ثم يمشي مسرعاً ويخطو خطاً ثابتة باتجاه الباب. القاضي يهرع خلفه)

استراحة، أيها السادة، استراحة قصيرة!

(ينسحب القاضي والوزير الأول. يتجه أعضاء المجلس إلى النوافذ وهم يتهامسون، ويستأنفون مراقبة «الجزيرة الطائرة»).

الطبيب: (مخاطباً الجميع) أيها السادة! حبذا لو تفسّرون لي؟ لِمَ هذا الخداع؟ لمصلحة من؟

(الجميع ينظرون في مناظيرهم ويتظاهرون بأنهم لم يسمعوا)

(الطبيب يكاد يصرخ) ماالذي حدث؟!!

عضو مجلس أول: (يأخذ الطبيب من ذراعه ويخفض صوته لدرجة الهمس) لاحاجة للصراخ، أيها الشاب. سوف نعرف ماالذي حدث عندما يعود القاضي والوزير الأول. يمكنني أن أعطيك رأيي في الموضوع: أنت دمرتّنا، دمرّت إيرلندا، ودمرّت سويفت.

الطبيب: لكن كيف، اللعنة على كل هذا؟

عضو مجلس أول: كل شيء واضح. إن سويفت فنان عظيم، وذلك إذا ماحكمنا تبعاً لقوانين الفن.

عضو مجلس ثان: (يأخذ الطبيب من ذراعه الآخر ويهمس) أمّا إذا ماحكمنا تبعاً للقانون العام- فإنه يستحقّ أن يقضي حياته كلها في السجن مقابل كل كتيّب كتبه.

العالم: (من خلفهم) وهكذا فإنّ الحياة نفسها أوحتْ بالحلّ: العميد مجنون صريح، ونحن الأوصياء عليه. هو يكتب مايشاء ونحن نقوم ببذل كل مانستطيع بذله من إطراء مفرط.

الأسقف: وكلنا أبرياء في نظر الربّ!

عضو مجلس أول: وفي نظر الحكومة!

العالم: هل تدرك أيّ تناغم كامل دمّرت، أيها الطبيب؟

الطبيب: كل مافعلته هو أنني وضعت التشخيص.

عضو مجلس أول: يكون التشخيص اتهاماً في بعض الأحيان!

(يفتح الباب. ويدخل الوزير الأول عابساً ومعه القاضي. يعود الجميع إلى أماكنهم حول الطاولة مسرعين).

القاضي: أيها السادة! سوف نتابع الآن. لقد كلّفني الوزير الأول بإبلاغكم أنه بعد الاكتشاف الهام الذي قام به طبيبنا لم نعد نستطيع انتظار أوامر لندن ونحن ننظر إلى سلوك العميد دون أن نحرك ساكناً... كل هذه الممارسات الغريبة وخاصة هذا الجنّاز السخيف الذي رتّبه لنفسه، يجب أن تنتهي في الحال!

عضو مجلس أول: لكن كيف؟

القاضي: بطريقة طبيعية إلى أبعد حدّ!

(فترة صمت. الأسقف يبدأ صلاته بصوت خفيض).

* * *

٨- «جوليڤر»

(مكتب العميد. سويفت جالس على مقعده، وقربه تجلس أستير جونسون ومعها مفكّرة. صوت غناء تحت إحدى النوافذ. يبدو الصوت شديد الشبه بصوت فانيسا)

أستير: هل أُغلق النافذة، أيها الجليل؟ الهواء رطب. (تتجه إلى النافذة وترى مغنية تشبه ڤانيسا تماماً) من فضلك، اذهبي إلى الحديقة، ياعزيزتي. توجد هناك طاولة للضيوف. وسوف يقدّمون لكِ شيئاً تأكلينه. (تغلق النافذة) ياإلهي كم تشبه هذه المتشردة ڤانيسا، ليس فانيسا التي كانت هنا، وإنما تلك التي أحببْتَها... (تتوقف برهة) أنا آسفة، ياسيدي! إنني أتطفّل على ذكرياتك. دعنا نتابع عملنا. (تتناول المفكّرة).

(ينهض سويفت ويتجه إلى النافذة ويضغط بوجهه على زجاجها. الفتاة التي تشبه فانيسا تُشاهد للحظة على بعد)

أنتَ تجلب البلبلة لنفسك، أيها العميد. (بحزن) لقد تعبتُ. كم هو صعب أن تفهم رجلاً يفكّر في

البشرية كلها ويفكّر في الوقت ذاته في فتاة عند النافذة.

(سويفت يعود لمواجهتها)

لا، ياسيدي. قلت لك إنني لاأعلم أين دُفِنَتْ فانيسا. لقد تحرّينا عن ذلك ولكن دون جدوى... (بغضب مفاجئ) وبالمناسبة، إنّ قبرستيلا موجود هنا، عند جدار الكاثدرائية، ومع ذلك لم يتم تبديل الزهور هناك منذ ثلاثة أيام. وأنت تعلم كم كانت مغرمةً بالزهور البرية...

(تُسْمَعُ ضجة في الحديقة. حجر يكسر النافذة ويسقط على المكتب)

(أستير تقفز خائفة) هؤلاء «الياهو» المرعبون مرّة أخرى! هذا ليس مكاناً آمناً، أيها الجليل!

(يبقى سويفت ساكناً. صوت تحطّم لوح آخر من الزجاج. صرخات وأصوات عراك في الخارج. يفتح الباب فجأة ويظهر الطبيب ساحباً معه باتريك)

باتريك: (مقاوماً) أنت تخيّلت ذلك، أيها الطبيب! لست أنا من فعل ذلك.

الطبيب: تخيلت ذلك؟ (يقلب جيب سترة باتريك الطويلة فيسقط منها عدد من الأحجار) هذا الوغد كان سيحطم كل نوافذ البيت.

(يتجه سويفت إلى باتريك. ينظر في عينيه بحزن. ومن ثم يبتعد مسرعاً باتجاه الباب).

باتريك: (يهرع خلفه) ليس صحيحاً، أيها الجليل. لم أفعل ذلك. بل هم! الياهو! لقد هززت قبضتي في وجوههم كي أخيفهم فظنّ الطبيب أنني أقذف شيئاً...

(يخرج سويفت)

(باتريك مواجهاً الطبيب بنظرة يأس) انظر الآن ماذا فعلت، ياسيدي؟ لقد جرحت قلب العميد.

الطبيب: (لأستير) لقد رأيت الكثير من الأجلاف الوقحين في حياتي، ولكن هذا...

أستير: اتركنا ياباتريك! من الواضح أن طبيبنا مخطئ، وسوف أحاول أن أقنعه بذلك.

باتريك: أقنعي السيد، ياآنسة جونسون. هذا هو الأمر الأساسي. فقد أصابته نوبة قلبية هذا الصباح..

أستير: سأحاول، لاتقلق، ياصديقي . . .

(يخرج باتريك)

الطبيب: (بحزم) هكذا إذن! لقد فهمت! إنها مؤامرة! أنت، ياآنسة جونسون . . . ذلك الخادم الوغد . . . مجلس الأوصياء . . . جميعكم تتمنون موت العميد. لقد لاح لي اليوم أن كارثة ستقع. والآن عرفت من الذي يدبرها.

أستير: عفواً، أيها الطبيب، لقد كان لديّ على الدوام تصور بائس فيما يتعلق بنباهتك. لابد أن ذلك بسبب كونك من نوتنغها مشاير.

الطبيب: اللعنة، لماذا تداومين على لكزي باسم نوتنغهام مشاير؟

أستير: يقولون إنّ الضباب كثيف هناك. وأن كل البلد متخلّفه من حيث تطورها. إنني أرجوك أن لاتكون قاطعاً في أحكامك على هذا النحو! أنت تقيم في بيت غير عادي وتعمل مع أناس من مستويات مختلفة. لاتتسرع في استخلاص الأحكام! وإذا مابدا لك فجأة أن أحداً مايقذف الحجارة . . .

الطبيب: ليس أحداً ما، بل باتريك! لقد رأيته بأمّ عيني!

أستير: وحتى لو كان هو. يجب أن نفكر أولاً - لماذا؟ هل كان يقصد الأذية أم أن الأمر هو العكس تماماً؟ لعله أراد أن يُسْعِد سيده؟

الطبيب: (مذهولاً) يسعده؟

أستير: كل الهجّائين تُكْسَر نوافذهم. إنها ميزة هذا النوع الأدبي. باقات الورد للشعراء، كِسْرات القرميد لنقّاد المجتمع. إنه مجدهم ومكافأتهم... الهجّاء الذي يكفّ عن إثارة السخط يكفّ عن كونه هجّاء. حياته تفقد كل معنى. ولهذا فإنّ فعلك قد أحزن العميد كثيراً.

الطبيب: أنا الملوم إذن! أنت التي تدبرين هذه الأمور وأنا الذي يقع عليَّ اللوم... ربما كان هجّاءً رديئاً، سويفتك هذا!

أستير: (غاضبة) سويفت عبقري! لكنه واقع في شَرَك. لقد سيقَ إلى هذا البيت، مغلق الفم، ومحاصراً بجدران من عدم الفهم. (تتجه إلى النافذة وتفتحها)

(نرى وجوه المواطنين تحدّق في الطبيب بلامبالاة)

انظر، هاهم الياهو الحقيقيون! تمعّن جيداً في وجوههم المتبلدة. لاشيء يحركهم، لاشيء يثيرهم. سويفت مسجون خلف جدران من عدم الفهم. ولقد استأجر الممثلين كي يوضحوا أفكاره للناس، لكن السلطات كانت أكثر دهاءً- فقد استأجرت جمهوراً. الحصار كامل. (تسحب الستائر) ولكنني لاألقي باللوم على أحد. لقد تغيّر الزمن، ياسيدي. فمن هو الذي يستجيب اليوم للإلماعات والإيحاءات التي جعلت العميد مشهوراً؟ الكلّ أدرك القصد منذ زمن طويل ولم يعد الأمر مسلّياً. لقد ضمر الوعي عند الناس! وهذا مايعذّب سويفت. هل تشكّ في أن هذه الجريمة تجري هنا؟ إنها تجري! دون خنجر أو حاجة للسمّ. يمكنك أن تقتل بعدم الفهم. رويداً رويداً، وبشكل منظّم دون أن تخرق قانوناً واحداً، خاصةً حين يُقَدَّرُ لكَ أن تلعب الدور الرئيسي. ولقد قام الوزير الأول والقاضي بكل مابوسعهما. يمكنك أن تُجْهِزْ على أي شخص، ياسيدي. أي شخص ولو كانت صحته أفضل بكثير من صحة العميد.

(فترة صمت. يتجه الطبيب إلى النافذة. يأتي صوت المطر عبر الزجاج المكسور)

الطبيب: حسنٌ! سوف أرحل من هنا.

أستير: لستُ واثقةً من أنَّ هذا هو القرار الصائب...

الطبيب: (مقاطعاً) بلا، إنه القرار الصائب. سوف أغادر. أنا طبيب. ووصية أبقراط الأولى هي عدم الضرر. وأنا لاأرغب في أن أكون سبباً لهلاكه. ولماذا أكون؟ أنا لم أطلب إرسالي إلى هنا... كنت أعيش في نوتنغها مشاير الصغيرة الهادئة، أمضي إلى مهنتي كل يوم، ولديَّ زوجة عادية وأطفال عاديون، وأعالج مجاذيب عاديين... لماذا كان عليَّ أن آتي إلى هذا البيت الغريب، هذا البيت الذي لايعرف أحد لمن تمّ بناؤه. إنني ألعنه بكل حماقته وغموضه! لاشيء مقدّس هنا! ليس الموت، والحب، والإيمان سوى ذرائع للسخرية! يكفي! حان وقت الرحيل. لم أتمكن من مساعدة أحد، ولكنني على الأقل لم أفقد عقلي! شكراً للربّ على هذا!

أستير: (قلقةً) لكنني أرجوك أن تبقى. يعتقد العميد أنه بحاجة شديدة إليك.

الطبيب: (غاضباً) وكيف تعرفين مايعتقده؟

أستير: من الصعب أن أشرح لك كل شيء في الحال، أيها الطبيب. (تأخذ الكتاب عن الرف) اقرأ كتاب العميد، ياسيدي. فقد يتضح لديك شيء ما. (تضع الكتاب أمام الطبيب وتتجه إلى الباب).

الطبيب: (ينظر إليها للحظة، ومن ثم يصرخ غاضباً) أخبري العميد بأنّ كتابه حقق معي نجاحاً مذهلاً!

(يلوّح بذراعه بعنف ويطوّح بالكتاب إلى النافذة)

أستير: (بعنف) العميد على حقّ تماماً. يمكن للإنسان أن يكون أسوأ من أية بهيمة. القرود تكسر المرايا لأنها لاتحبّ أن تُبصِر وجوهها فيها، أما تهشيم نوافذ الكاتب بكتبه، فلايمكن أن يفكر بذلك إلاسيد الطبيعة وحده

(صوت المطر يزداد ارتفاعاً. ينظر الطبيب من النافذة. الكتاب تمزّق والريح تبعثر صفحاته. باتريك يندفع خلفها كالمجنون محاولاً التقاطها. الطبيب

يراقبه للحظة، ومن ثم يهرع لمساعدته. وسرعان مايعودان، مبتلّين، ولكن متصالحين)

باتريك: (ينشر الأوراق على الموقد) لاتهتم، ياسيدي. . . سوف نجففها ونكويها، ومن ثم نجمعها مرة أخرى. . . سوف يعود جديداً. . .

الطبيب: (خجلاً) اعذرني، ياباتريك! لقد خرجت عن طوري. . .

باتريك: لاتقلق، ياسيدي! الطبيب السابق رمى بنفسه مع الكتاب من النافذة. ردّة الفعل لديك كانت طبيعية تماماً! لقد قال العميد إن واجبه هو «إغاظة العالم وليس تسليته».

الطبيب: قل لي، ياباتريك، هل يمكنك أيضاً أن تسمع العميد وهو يتكلم؟

باتريك: لقد فعلت ذلك مرّات كثيرة، ياسيدي.

الطبيب: كن صادقاً.

باتريك: حسنٌ، سوف أعبّر بطريقة أخرى: إنه يكاد لايصمت.

الطبيب: (باحتراس) آه، هيا انقلع من هنا!

باتريك: حسنٌ، ياسيدي (يتراجع خطوة) لاحاجة للاستياء. لقد سألتني وأنا أجبتك.

الطبيب: هل تريد أن تقول لي أن العميد شخص ثرثار؟

باتريك: بالطبع لا، ياسيدي. فهذا التعبير لاينطبق عليه إطلاقاً. لقد كفَّ العميد عن استخدام الكلمات. فهي تشوِّه المعنى. خاصة في هذا الوقت وهذا العصر. إننا ننطق بأكاذيب لاتحصى. نفكّر بشيء، ونقول غيره، ونكتب شيئاً آخر يختلف عن هذا وذاك... أما العميد فقد خطا خطوة إلى الأمام! إنه يعبّر بالأفكار! وهذا أرقى أسلوب للاتصال بين الكائنات العاقلة، دون آذان أو شفاه! حتى أنك لاتفتح فمك. إنه اتصال مباشر.

الطبيب: يجب أن أفهم... علّمني، ياباتريك!

باتريك: أعدك بذلك، ياسيدي. ولكن كل شيء يحتاج إلى الوقت والصبر. فكّر كم صرفت أمك من أجل تربيتك والعناية بك، وكم قلّدت الصغار فيما ينطقونه، فقط من أجل أن تعلّمكَ الكلام! أما تعليمك الاحتفاظ بالصمت! فإنَّ ذلك يحتاج إلى العمر كله! أجل، يجب أن نبدأ من البداية. اقرأ كتاب العميد.

الطبيب: لكنه مملّ جداً.

باتريك: (وكأنه يكلّم طفلاً مشاغباً) لا، ليس مملاً! لاتكن قليل الصبر إلى هذا الحدّ! حسن، هذه طبعة الأطفال. (يأخذ كتاباً عن الرّف) إنها طبعة مبسَّطة.

ألق نظرة إلى الرسوم، على الأقل! إنها رسوم جميلة.

(تحت أنظار باتريك التي تراقبانه، يقلب الطبيب بضع صفحات. تنطلق موسيقى ناعمة. يحول الطبيب بصره إلى لوحة على الجدار، ومن ثم يعود إلى الرسوم التوضيحية في الكتاب)

الطبيب: (بهدوء) قبعة.

باتريك: ماذا؟

الطبيب: (يرفع صوته) قبعة.

باتريك: من أيّ نوع، ياسيدي؟

الطبيب: قبعة كبيرة، وسترة، سترة سفر.

باتريك: في الحال، خلال لحظة (يهرع إلى خزانة، يفتحها ويخرج سترة سفر وقبعة).

الطبيب: (يختطفهما ويغيّر ملابسه بعجلة، ويهمس) أنا جوليفر!

باتريك (هامساً) من؟

الطبيب: (صارخاً) أنا جوليڤر! من نوتنغها مشاير! هذا مايقوله هنا في الكتاب: «كان لأبي ملكية صغيرة في نوتنغها مشاير». طبيب من نوتنغها مشاير، ليمول جوليڤر... لِمَ لَمْ أحزر ذلك من قبل؟ (يهرع إلى المرآة) أنا جوليڤر! (يرقص، يهرع إلى بيانو صغير ويضغط مفاتيحه ويغني) في نوتنغها مشاير! في نوتنغها مشاير! في نوتنغها مشاير! أغبى من رأت عيناك من أطباء! في نوتنغها مشاير!

باتريك: شكراً للرب! أخيراً! (يمشي مشية المنتصر إلى الباب) آنسة جونسون! أخبار سارّة! لقد جُنَّ الطبيب! (يخرج)

(الطبيب يواصل العزف. تتحولّ الأصوات إلى لحن، والكلمات إلى أغنية، يتابع غناءها حشد المواطنين عند النوافذ... تنتهي الأغنية بنغمات متهللة شديدة الابتهاج. وفي نوبة جنون يثب الطبيب إلى عتبة النافذة ومن ثم يقفز إلى الحديقة. يُقابل صوت سقوطه بموجة من التصفيق والهتاف ثم يعمّ الظلام خشبة المسرح.

٩- «صمت الطبيب سيمسون»

(تتبدّد الظلمة تدريجياً، وتبدأ الأشكال بالظهور. تعود الأصوات أيضاً... شعورٌ بأنّ ثمّة شفاء من النسيان... يفتح الطبيب عينيه ويجد نفسه مستلقياً على الأريكة في مكتب سويفت. أستيرو باتريك منحنيان فوقه)

أستير: (تتفحّص الطبيب) عجيب... لقد تغيّر وجهه.

باتريك: لاحظي البؤبؤين. إنّ في عينيه نظرة مختلفة. ماأعمقها!

أستير: (بلطف) كيف تشعر الآن، أيها الطبيب؟ إنها سقطة بسيطة. (يئنّ الطبيب ثانية)

جاءت سليمة. مثل هذه الأشياء تحصل هنا... وأرجوك، لاتتكلم.

باتريك: أجل، ياسيدي. حاول أن تردّ بصمت. بالتفكير! هذا ماأردتَ أن تتعلمه.

(يجلس الطبيب على الأريكة. يحدّق مبهوراً إلى باتريك ويهزّ رأسه)

لا، لاحاجة لاستخدام الوجه كلّه. النظر فقط.

(ينظر الطبيب إليه)

جيد! أنا أفهم الآن. أنت تسألني ذهنياً: أيُّ شرٍّ تخفيه؟ رائع! اشرحي الأمر للطبيب، ياآنسة جونسون! (يمضي إلى النافذة)، ويخرج منظاراً يمسح به السماء)

أستير: (همساً) أيها الطبيب... ليس لديَّ الوقت كي أشرح كل التفاصيل، ولكن إنْ كنتَ معنيّاً حقاً بحياة العميد، فإنَّ بمقدورك مساعدته!

باتريك: (منفعلاً) اطرقي لبّ الموضوع، ياآنسة جونسون. ليس لدينا المزيد من الوقت! إنهم يحومون فوق الحديقة.

أستير: (تنظر حولها بجزع) إنه يعني الجزيرة الطائرة! نحن جميعاً نتساءل إنْ كانت مُذَنَّباً أم أنهم مبعوثون قادمون من عالم آخر؟ لقد جاء إلى هنا اليوم أناس أطلقوا على أنفسهم اسم «زوّار من المستقبل». إنهم اللابوتانيون...

(يهزّ الطبيب رأسه)

أجل، ياسيدي، أنا أيضاً صُدِمتُ، ولكنهم أقنعوني بأنَّ ذلك حقيقي، وأنهم قاموا برحلتهم من أجل

اللقاء بالعميد سويفت، فهم يحتفلون هناك بالذكرى المئوية الثالثة لوفاته. ولقد تساءلت وباتريك إنْ كانت تلك خدعة. فقد يكون هؤلاء من مرتزقة الوزير الأول؟ فهل يمكن أن نعرِّض العميد لمثل هذا الخطر؟

(يحدق الطبيب فيها باذلاً جهداً شديداً من أجل أن يفهم قصدها، ومن ثم ينهض ويمضي إلى المكتب)

باتريك: (مبتهجاً) لقد فهمتَ، ياسيدي! إنهم لايعرفونه بالشكل. كنتُ سأجلس هناك بنفسي، لكنّ عينيَّ ليستا عميقتين. وهذا ماقد يثير الشبهة.

أستير: (تساعد الطبيب على الجلوس) أجل، هكذا. امسك هذه الريشة بيمينك. هكذا اعتاد أن يصوره الرسامون. أما الآن فسوف ترتدي هذه العباءة.

باتريك: بسرعة، ياآنسة جونسون! الجزيرة تهبط على الأرض! (يركض إلى الطبيب ويضع مسدّساً أمامه)... عند الضرورة فقط، ياسيدي. وسوف نختبيء نحن خلف هذا الجدار.

أستير: باركك الله فيك!

(باتريك وأستير يختبئان. يُسمَع صوت موسيقى مبهمة، وضجة حادة تزداد ارتفاعاً. ثمة صوت تحطّم وكأنّ الجدران تتصدّع وتنشق وحشد من الأفراد الغرباء في لباس من النايلون والجلد يدخلون إلى غرفة المكتب. آلات تصوير تئزّ، وأضواؤها تومض. الزوّار من لابوتا يحيطون بالطبيب. يتقدّم أحدهم فجأة إلى الأمام، ويباشر الحديث واثقاً من نفسه ثقةً عظيمة، ومتظاهراً بعدم الارتباك في حضرة سيد البيت).

اللابوتاني: التبجيل، التبجيل، أيها الأصدقاء! أنتم في منزل جونا ثان سويفت. وُلِدَ عام ١٦٦٧، وتُوفي عام ١٧٤٥. وهو يحتلّ منزلةً خاصة بين أعظم هجّائي الماضي. لاتلتمسوا لديه تفاؤلية رابليه المفرحة، ولاتهكّم فولتيرا اللبق، أوشكّية فرانس المنفلتة... إنَّ سويفت ساخر عنيف!

أحد الزّوار: (بنظرة فزعة إلى الطبيب) هل أنت واثق من أنه لايلاحظ وجودنا؟

اللابوتاني: لقد أوضحت ذلك من قبل؛ إنَّ العميد عاجز. ففي سنواته الأخيرة كان قد أصيب بالجنون التام. لاحظوا النظرة المحدقة الذاهلة، والوجه الجامد تماماً، والغياب المطلق لأي ارتكاس أو منعكس! (يُخْرِج بسرعة الخبير دبوساً ويخز الطبيب في كتفه)

(لايحرك الطبيب أية عضلة)

أحد الزوّار: أهو مرض «منْيير»؟

اللابوتاني: لقد أكّد الخبراء ذلك. ولهذا فإننا لانسبب له أي إزعاج. نحن في مكان ما ممّا قبل شعوره. بالنسبة له نحن مجرد أطياف.

أحد الزوّار: ياله من شخص بائس! لماذا لايشبه أبداً صوره المرسومة؟

اللابوتاني: هل تقصد لوحات جرڤيز في المعرض الدولي؟ إنها ليست أصيلة، فالمظهر الحقيقي للعميد ليس إلا واحداً من الألغاز التي لاتزال تحيِّر الدارسين إلى اليوم. (ينظر إلى الطبيب بابتسامة) شخص محيِّر! لم يقف أبداً كي يرسمه الرسامون، ولم

يوقّع أبداً على كتبه الخاصة. بل لقد مرّر للناشر مخطوطة جوليڤر من تحت الباب، غُفْل من اسم مؤلفها.

أحد الزوّار: وإلامَ تعزو سخريته المريرة؟

اللابوتاني: إلى العصر! نهاية الإقطاع والنمو المتسارع للمجتمع البرجوازي، الذي سرعان ماانقلبت مثله العليا. وفوق كل هذا عواصف القدر...

أحد الزوّار: هل تعني ستيلا أم فانيسا؟

اللابوتاني: كلتيهما. امرأتان رائعتان أحبّتاه ودمرّهما بأنانيته وقسوة قلبه. المخلوقتان البائستان رحلتا في ريعان الصبا.

زائرة تشبه أستير: هذا ليس صحيحاً!

اللابوتاني: ماالذي ليس صحيحاً في ماقلتُه؟ أأنهما ماتتا أم أنهما كانتا اثنتين فقط؟

(الزوّار يضحكون)

الزائرة الشبيهة بأستير: (متقدمةً للأمام) ليس مهماً عدد النساء اللواتي يحدث أن يصادفهن الرجل في حياته. ليست المشكلة كم يبلغ عددهن، فثمة

على الدوام واحدة، واحدة وحيدة! كان الأمر دوماً بهذه الصورة وسيبقى.

زائرة تشبه فانيسا: وأنتِ، بالطبع، واثقة من أنها كانت ستيلا؟

الزائرة الشبيهة بأستير: كيف حزرتِ؟

الزائرة الشبيهة بفانيسا: أنتِ تشبهينها.

الزائرة الشبيهة بأستير: المظاهر ليست مهمة. هنالك يوميات سويفت.

الزائرة الشبيهة بفانيسا: وهل يمكن لأحد على الإطلاق أن يصدق مايكتبه رجل عن امرأة؟ احكمي من خلال صور فانيسا، فقد كانت أجمل من غريمتها بمالايقاس.

الزائرةالشبيهة بأستير: لكن لو حكمنا من خلال رسائلها، فانها لاتدلّ على ذكاء أبداً.

(ضحك من الزوّار الآخرين)

الزائرة الشبيهة بفانيسا: لِمَ نتجادل بوجود المصدر الأصلي؟ فلنسأل العميد: ستيلا أم فانيسا؟

(تتجهان إلى الطبيب مصممتين)

اللابوتاني: (منبِّهاً) لكن العميد لايتكلم إطلاقاً!

الزائرة الشبيهة بأستير: تكفي تلميحة واحدة.

(يخفض الطبيب عينيه خائفاً. همهمة من الزوّار)

اللابوتاني: التبجيل، التبجيل، ياأصدقاء! لن نتخطى حدود اللياقة.

واحد من الزوّار: لكنكَ قلتَ أن العميد لايلاحظ شيئاً.

اللابوتاني: (مرتبكاً) ضمن حدود، بالطبع.

واحد من الزوّار: لا، أعطنا جواباً محدداً: هل نحن أطياف بالنسبة له أم لا؟

اللابوتاني: أجل، مجرد أطياف! ولكن لاداعيّ للذعر من ذلك. فلنكبح مشاعرنا، ياأصدقاء! انتقلوا إلى الحديقة. ألقوا نظرة على أحواض الزهر... والبناء... وعند منتصف الليل، حين يدقّ الناقوس. أريدكم أن تجتمعوا جميعاً في الساحة أمام الكاثدرائية. ذلك سيكون هو الجزء الأكثر تشويقاً.

(ينسحب الزوّار. يبقى اللابوتاني ويتجه إلى الطبيب)

رائع، أيها الطبيب! لقد أدّيت دورك بصمت مدهش.

(لايردّ الطبيب أبداً)

ألا تريد أن تنطق؟ ألم ينتهِ المشهد بعد؟ (يهرع إلى الخزانة ويصفق) عظيم، أيها العميد! سوف يضحك الزوّار كثيراً حين يعرفون كيف خدعتهم. (يفتح باب الخزانة وينظر بداخلها) لكن أين مهرجنا؟ أنا واثق من أنه مختبئ في مكان ما. (بغضب) من السخف أن تصمت أكثر من ذلك، أيها الطبيب. فهذا يترك انطباعاً سيئاً. يبدو أن العميد قد تعب من الضحك على معاصريه وقرر أن يضحك على الأجيال. وهذه تجربة خطيرة! أقول هذا كاختصاصيّ، كدارس لحياته وأعماله. فهو، وبصراحة متناهية، لايعدو أن يكون كاتباً عادياً. وهو شخص ناكر للجميل دوماً. كان من الممكن أن أكرّس عمري لدراسة ديكنز... ثاكري... وحتى غالسورثي! لكنني أبليت سراويلي جالساً في المكتبات وقاعات المدوّنات، أدرسُ سويفت، ومن ثم يرحِّب بي هكذا! (يصرخ في سويفت اللامرئي) أنت مؤلّف منسيّ، أيها السيد! تقليديّ ومدرسيّ، لايقرأ لك أحد! اسأل من تشاء من

هم الهـوينوهمـز، أو مـاهي جلبـدبريب، أو بروبدنجناج. نصفـهم لم يسـمع بهـا، والنصف الآخــر لـم يســمع وليس بمقــدوره أن ينطق الأسماء. . .

(يشهر الطبيب المسدس ويصوّبه إلى اللابوتاني. يتراجع اللابوتاني ولكنه لايلبث أن يعود ضاحكاً)

لا، هذا مـبـتــذل! فـلنَـدعِ السـيـوف والمسـدسـات لوالترسكوت! إنها وافرة في أعماله. سويفت أكثر بساطة. لاتنزعج، مامن أحدٍ حاول قتله. خُذْ هـذه مني، كـاخـتـصـاصيٍّ. لقـد مـات بطـريقـة طبيعية، من جرّاء نوبة قلبية عادية تماماً. في التاسع عشر من تشرين الأول عام ١٧٤٥. إنَّ ذلك في كل الموسوعات. يمكنني أن أريك. . . (يتناول كتاباً من محفظته الجلدية ويضعه أمام الطبيب) **محاضر جلسات مجلس الأوصياء**. إنها طبعة أكاديمية. حسنٌ؟ هل ستطلق النار أم ستصدقني؟

(يخفض الطبيب المسدس)

شكراً لك! اعتقد الآن أنني سوف أعود إلى الزوّار. هؤلاء «البّحاثة العظماء» يريدون على الدوم أن يحفروا علامتهم على الجدار في كل عهد. وبعد ذلك يحاول المؤرخون حلّ لغز تَمَكُّنِ أحد ما من استعمال ريشة من اللباد في القرن الثامن عشر! (يخرج)

(يفتح الطبيب الكتاب ويقلب صفحاته. باتريك وأستير يهرعان إلى الغرفة)

باتريك: (خائب الرجاء) كان عليك أن تضغط على الزناد، أيها الطبيب! إنْ كان هذا شخص من - هناك، فوق- حقاً، فإن الرصاصة لن تؤذيه أبداً، وإنْ كان واحداً من رجال الوزير الأول، فإنها لن تؤذيه أيضاً!

أستير: (تفتح الكتاب وتقرأ ببطء وبصوت مرتفع) «في التاسع عشر من تشرين الأول عام ١٧٤٥ توقّف جوناثان سويفت عن الحياة. في مساء اليوم السابق لوفاته كان قد أحسَّ بوعكة غريبة، كأنها الإحساس بالنهاية. وطبقاً لذكريات أصدقاء

العـمـيـد المقـرَّبين، فـقـد بدأ بالكلام عـمليـاً بعـد سنوات عـديدة من الصـمت. وكـانت أول كلمـة نطقها سويفت هي «متى؟»».

(يُفْتَح الباب على مصراعيه. على العتبة يقف سويفت. أستير تغلق الكتاب بسرعة وخوف).

* * *

١٠- «الموت الأخير لجوناثان سويفت»

سويفت: متى؟

أستير: لاأدري ماالذي تسأل عنه، أيها العميد؟

سويفت: أنا واثق من أنَّ هؤلاء الناس قد أعلموكم بالتاريخ الدقيق.

الطبيب: (متجهّماً) كُفَّ عن هذا! الهذر لايناسبك. اعذرني، لكنك كنتَ تبدو أكثر ذكاءً بكثير وفمك مغلق.

سويفت: متى سأموت، أيها الطبيب؟

الطبيب: هذا سؤال تعوزه اللباقة على نحو مضاعف! فحتى لو كنتُ أعرف، لن أخبرك... ثمّة أشياء هي بمثابة أخلاقيات طبية. وأنا أقسمتُ اليمين.

سويفت: حسنٌ. دعنا نتفاهم بصمت. أنت تتعلم ذلك منذ وقت طويل، وسوف تثمر جهودك الآن.

(ينهض الطبيب متعجّلاً)

أليس غداً حقاً؟

الوزير الأول؟ الأفّاك الوقح! لن يكون هنالك شيء من هذا القبيل! لقد كررتُ ذلك مرات كثيرة كي أتجنّب مثل هذه التوافه. الساعتان طويلتان بما فيه الكفاية. سيكون لدينا الوقت اللازم للاستعداد. باتريك، آنسة جونسون، اجمعا كلّ الممثلين... كلّهم... هل تفهمانني؟

أستير: بالطبع، أيها العميد.

سويفت: ادعواهم إلى هنا. قولا لهم إنه آخر تمثيل، وإنّ هنالك أمراً يجب أن نناقشه.

(يخرج باتريك وأستير)

الطبيب: إنّ سلوكك مخيِّب للأمل كثيراً، أيها العميد. يبدو أنك تفعل كل شيء كي تجعل النبوءة تتحقق.

سويفت: على العكس! سوف نسفّهها بصورة كاملة. وسوف تساعدني. (يأخذ ورقة وريشة ويضعهما أمام الطبيب) فلنضرم النار في مذكرات الوزير الأول الأحمق! سوف يحصل المؤرّخون على مذكرات الطبيب المسؤول. وهذه وثيقة قانونية لا يمكن دحضها!

الطبيب: أنا لم أقل هذا!

سويفت: (حزيناً) سيكون غداً إذن . . . التاسع عشر من تشرين الأول . . . كُن أكثر تحديداً؟ صباحاً؟ أم مساءً؟ أنا آسف، ولكن عندما تتعلّق الأمور بالموت فإنّ كل ساعة تكون ثمينة .

باتريك: (يائساً) لاتُجِبْ، أيها الطبيب! لاتفكّر بذلك .

سويفت: سيكون ذلك في منتصف الليل تماماً إذن . مازالت لديّ ساعتان .

باتريك: لقد طلبتُ منك أن تبقى صامتاً ذهنياً .

سويفت: اصمتوا، الآن، جميعاً! لقد أخذتم من وقتي مايكفي . فالإنسان يكون في وضع غيرمؤاتٍ مع الموت، لأن الموت يعرف موعد حلوله، أما بالنسبة للانسان فهذا الوقت مبهم . . . ولكنني الآن والموت ندّ لندّ! ومامن أحد يعرف من الذي ستكون له الكلمة الأخيرة . . . (يأخذ الكتاب من أستير) ماالذي يخرّفونه عني؟ (يقرأ) «في التاسع عشر من تشرين الأول كان منزل جوناثان سويفت مليئاً بالعويل . . . » من كتبَ هذا؟ وولبول؟

الطبيب: عليَّ أن أذكّرك بأنني لن أكتب سوى الحقيقة.

سويفت: بالطبع! الحقيقة بأسمى معنى لهذه الكلمة. اكتب! «أنا الطبيب سيمسون، من نوتنغها مشاير، استناداً إلى حضوري حتى الدقائق الأخيرة من حياة مريضي جوناثان سويفت من دبلن... في ساعة متأخرة من الليل، عشية ذلك اليوم المشهود، التاسع عشر من تشرين الأول عام ١٧٤٥، جاء بي العميد على نحوٍ مفاجئ إلى مكتبه وقال: «أيها الطبيب! أرغبُ في أن أكتب تتمةً لـ«**رحلات جوليڤر**»... الجزء الخامس والأشدّ أهمية من الكتاب! الفصل الأخير... رحلة إلى أرض الموت... وهي رحلة سوف أقوم بها بنفسي...» (يلاحظ أن الطبيب وضع الريشة جانباً) لماذا توقفتَ عن الكتابة؟ هل ثمة خطأ ما؟

الطبيب: اهدأ، أيها العميد! ليس في صالحك أن تهتاج هكذا...

سويفت: (بَرِماً) ولقد صرختُ: «اهدأ، أيها العميد، ليس في صالحك أن تهتاج هكذا»، ولكنّ العميد أجاب، الهياج في صالحنا على الدوام!» (يضع الريشة في يد الطبيب)

الطبيب: (ساخطاً) ولكنك شاحب اللون، ونبضك متسارع.

سويفت: (بَرِماً) وصرختُ ثانيةً: «ولكنك شاحب اللون، ونبضك متسارع»! ولكن العميد مَدَّ لي رسغه (يرفع رسغه) واكتشفتُ أنّ نبضه كان منتظماً تماماً. . .، وتابعَ العميد، «عند منتصف الليل، عندما يدقّ ناقوس الكاثدرائية، سوف أبدأ الرحلة إلى بلاد لعلّ أحداً لم يزرها قبلي سوى دانتي. لقد وصف دانتي هذه البلاد بقلم العبقري، لكن واحسرتاه! - بكآبة مفرطة. وأنا واثق من أن كثيراً من الأشياء المضحكة والسخيفة تحدث هناك، لكن الإنسان لا يتاح له أن يشهدها. فالموت ينأى بنفسه عن الظهور بمظهر السخيف!

وتلك هي نقطة ضعفه. . . الموت ينأى بنفسه عن أولئك الذين يزدرونه. . .»

(يفتح الباب. باتريك وأستير يقودان الممثلين. نجد هنا الليليبتاني الثاني، المارد جلم، صمبدي، والعديد من المواطنين)

باتريك: نحن جميعاً مستعدون، أيها الجليل. . .

سويفت: (مخاطباً الممثلين) عند منتصف هذه الليلة سوف أموت للمرة الأخيرة. وهذا تمثيل ذو شأن وأريد أن يكون مُقْنِعاً قدر الإمكان. . . وعليكم أن تكونوا مضحكين بأقصى ماتستطيعون وأنتم تمثّلون الحزن. واذا ماترنّحتُ، عليكم جميعاً أن تولّولوا. . .

الليليبتاني الثاني: هل أولّول أنا أيضاً؟ أنا ليليبتاني. لن يسمعني أحد قط.

سويفت: ليس مهماً! ولولتنا الليلة ليس للغير بل لأنفسنا. . . (يلقي نظرة شاملة على جلم) جلم! يجب أن تذهب وتغيّر ملابسك. هاتان الطوّالتان ليستا طويلتين بما يكفي لمثل هذا العرض المهيب.

جلم: (يضحك ويرفع بنطاله) سأفضي إليك بسرّ، أيها العميد. . . هاتان ليستا طوّالتين، إنهما ساقان!

لقد بدأت أُنمو من جديد. حقاً وفعلاً. وهذا ماسيجعل الأمور أكثر إمتاعاً!

سويفت: جيد! (يتجه إلى صمبدي) وأنت، ياسيد صمبدي، سوف ترمقني بنظرة حزينة. . . ولكن عليها لمسة حسد- كم هو محظوظ من يموت! بينما عليَّ أن أعيش وأعيش.

صمبدي: لكنني أحسدك حقاً، أيها العميد. سوف تموت وسوف تكتب كل الصحف، «مات سويفت!» ولكن إذا متُّ أنا، مالذي يمكنهم أن يكتبوه، «في تاريخ كذا وكذا خطف الموت صمبدي. . .»، وقد يفضّلون أن يكتبوا «نوبدي».

سويفت: (معانقاًصمبدي) جيد! قُلْ هذه النكتة عالياً بقدر ماتستطيع. ستكون إشارةً لي كي أسقط! . . . (للمواطنين) أنتم سوف تنحنون فوقي.

ثم يأتي الطبيب ويكتب تقريره. وهذا كل شيء! وبعد ذلك أختفي. إلى الأبد!

واحد من المواطنين: ألن تعود لتسمع التحيةوالتصفيق؟

سويفت : ليس هذه المرة.

جلم : (متنهّداً) ربما لن يكون هنالك أي تحية وتصفيق. أنت، أيها العميد، من يقول إن التلاعب بالعقل يخلق متعةً. والأمر الذي يريد الجمهور أن يعرفه هو مَنْ يُحِبُّ من. ستيلا : فانيسا؟ فانيسا : ستيلا؟

سويفت : (بحزن) أجل، لستُ ناجحاً في المشاهد الغنائية العاطفية . . . تلك هي نقطة الضعف في فني.

باتريك لاتقلّل من شأن نفسك، ياسيدي. وكأن كاتباً كلاسيكياً مثلك، ومتيّماً أيضاً، لايمكنه أن يكتب مشهد حبّ مؤثّر! لِمَ لايكون هنالك مشهد من هذا النوع عند المذبح؟ والأرغن يعزف بكل طاقته . . وسوف تساعدك الآنسة جونسون.

سويفت : (متحولاً إلى أستير) هل تساعدينني- ستيلا؟!

أستير : هل تخاطبني، أيها الجليل؟

سويفت : أنت تشبهين إلى حدٍّ بعيد تلك المرأة التي أحببتها . . . أودّ لو أناديكِ ستيلا عند الوداع. وأن نمضي كلانا إلى المذبح في الكاتدرائية. ونجعل الأرغن يعزف . . .

باتريك: (متلّهفاً) وهل أستدعي الكاهن؟

سويفت: ليس ضرورياً. سأقوم بكل شيء بنفسي. لقد زوّجت الكثيرين. ولهذا لابد أن أكون جديراً بإجراء شعائر الزواج لنفسي، مرةً فقط.

أستير: (بحزن) أعفني من هذا، أيها الجليل... لاأعرف كيف أتظاهر بذلك... وأنت أيضاً لاتعرف أن تتظاهر. يمكن للمرء أن يخدع الأصدقاء أو الخدم، ولكن ليس امرأة تحبّه... أنتَ مغادرٌ حقاً هذه المرّة!

سويفت: وليكن. فأنا أريد، على الأقل، أن أضع كل شيء في مكانه المناسب...

أستير: أجل... سوف أساعدك... (تتجه إلى النافذة وتنادي) فانيسا! (تظهر فانيسا)

فانيسا: هل ناديتني، أيتها الممرضة؟

أستير: لقد طلبك العميد. إنه يريد أن يودّعك... ويريد... ماذا أقول؟... يريد أن يحدّثك بشيء هام... أليس كذلك، أيها العميد؟

(سويفت صامت)

يريد العميد أن يحسم الوضع الغريب الذي كنا فيه أنا وأنت وهو طوال سنوات عديدة. لقد اختار . . . اتّخذ قراراً . . .

فانيسا: وكلّفكِ بمهمة الإعلان عن القرار؟ (لسويفت) ليستَ هذه نكتة مليحة تماماً، أيها الجليل. لقد أُعْجِبْتُ دوماً بحسّ الدعابة المرهف لديك، لكن هذه . . . ليست مليحة . . . (للمثلين) مارأيكم؟

جلم: لا، ليس كثيراً . . .

واحد من المواطنين: قد تكون أكثر إثارة عندما يتم تنفيذها؟

(تندفع أستير وفانيسا فجأة واحدتهما إلى الأخرى تتكلمان بانفعال وغضب والواحدة تقاطع الأخرى)

أستير: لاترتكبي مثل هذه الحماقة، يافانيسا. إنه يحبكِ! أنا أعرف! لقد عرفتُ ذلك لسنوات! . . . إنه يقرأ رسائلكِ مرّة بعد مرّة . . . ويدندن أشعاراً . . .

فانيسا: اهدأي! لقد أذللتِني بشهامتكِ! إنني أفهم صمت العميد بقدر ماتفهمينه.

أستير: لكنه أشد حاجة إليكِ!

فانيسا: ليس أنا بل أنتِ!

أستير: لقد تدبّرتِ أمر مراسلاته على أكمل وجه. وأدرت البيت في نظام تام. أما أنا فمجرد ريفية! ولديَّ ذوق مختلف. . .

فانيسا: لاتنتقصي من قيمة نفسك بهذه الصورة! لقد جعلتِ البيت مريحاً جداً. ووضعتِ هذه الستائر الرائعة. . .

أستير: ستائر شنيعة!

فانيسا: إنها رائعة! (تلجأ ثانيةً إلى الممثلين) أنتم ترون أيضاً! ستائر مَنْ هي الأجمل؟

أستير: (بيأس) ماأهمية الستائر؟ (تجثو على قدميها أمام العميد) أيها الجليل، اصفح عني، تزوجها هي، تزوجها!

(يكاد سويفت أن يتفوّه بشيء ما ولكنه يترنّح. الطبيب يهرع إليه)

الطبيب: (للمرأتين) أنتما تقتلانه. . .

سويفت: (يحاول أن يبتسم) لقد حذّرتكم: هذا المشهد لن ينجح أبداً. . . لقد تدرّبنا عليه سنوات. . . وظلَّ مفتقراً للوضوح. السخرية لم تؤدِّ مهمتها،

وإلهامي لم يتفوق في المجال الغنائي العاطفي.
اعذراني! (متحولاً إلى الممثلين) الحياة معقدة
وهي تتمرد دوماً على الأفكار المنظَّمة الراسخة.
كلتا هاتين المرأتين أسرت قلبي، وليس لديّ
لا القدرة ولا الحق لتفضيل واحدة على
أخرى... سجِّل هذا، أيها الطبيب: «ستيلا
وفانيسا وسويفت عاشوا على هذه الأرض!
أحبّوا بقدر ما استطاعوا، وعانوا بقدر
ما استطاعوا... لكن مقاصدهم كانت شريفة.
ولا داعي لأن تحاول الأجيال القادمة حلَّ هذا
اللغز... فليكن عذابهم كافياً...»

(يدّق الناقوس. يظهر الليليبتاني الأول والشرطي جنجر عند باب المكتب المفتوح)

الليليبتاني الأول: حان الوقت، أيها العميد!

سويفت: أجل... أَعلَم... (للطبيب) لاتنظر خائفاً
هكذا، أيها الطبيب. هذا مايجب أن يكون...
أنا بين أصدقاء: منهم من جاء ليراني أَغرُب،
ومنهم من جاء ليحتفي بي... هو الأمر دوماً
هكذا!

(يدق الناقوس بصوت أعلى. يتجه سويفت نحو الباب. المرأتان، والممثلون والمواطنون يتبعونه بصمت. الطبيب يراقبهم وهم يمضون)

باتريك: (يلمس كُمّ الطبيب) اصعد الدرج، ياسيدي. سترى المشهد بصورة أفضل من هناك. كما لو كنتَ في مقصورة المسرح.

الطبيب: لا، يمكنني أن أرى كل شيء من هنا... (يتجه إلى المكتب ويغمس الريشة بالحبر).

باتريك: (مصغياً إلى ضجّة الحشد) سوف يجري الجُنّاز بصورة رائعة هذا اليوم!

لقد حسب العميد حساب ذلك كلّه...

(جلبة في الخارج)

انظر! لقد ترنّح!

(تصفيق)

إنهم يؤدّون ذلك بشكل جيد، لكن الجمهور لايضحك كثيراً... لم يعد الناس يفهمون الفن الرمزي!

(الحشد يهدر)

إنه يسقط! (ينظر من النافذة) إنهم يحملونه! وهو
لايتحرك . . . (يدير وجهه المصطبغ بالانفعال إلى
الطبيب) يمكنك أن تكمل الباقي بنفسك . .
ياسيدي . . . أنا لاأستطيع . . . حتى الخدم لديهم
أعصاب .

الطبيب: (يكتب)

اندفعتُ إلى الساحة ، والحشد يصرخ .
وهناك وجدتُ جونا ثان سويفت .
كان مستلقياً على الأرض دون حراك . . .
وضعت أصابعي على معصمه البارد ،
وأذني على صدره الصامت ،
ولما هممتُ بإعلان موته ،
رأيتُ عينه تومض فجأةً
بغمزةٍ جريئةٍ لعوب .
وأدركتُ عندئذ أنَّ أمامي ممثل
بلغَ في مهنته حدَّ الكمال وأنجزَ
مايقتضيه الفن ،

لقد تمكّن حقاً من إيقاف قلبه ونَفَسَه،
وماكان لنا أن نقرر هل هوحيّ أم ميت
ولقد أوضحتُ هذا للمواطنين.
أما الممثلون فقد حملوا الجثمان على الخشبة،
والنظّارة اختفوا...
(يدّق الناقوس بصوت أعلى)

– ستارة–

الفهرس

١٥٠٠ ط١/١٠/١٩٩٧